عُزير
ينام من جديد

عنوان الكتاب: عزير ينام من جديد
المؤلف: شاهر جوهر
التخصص الأدبي: رواية
الطبعة الأولى - 2021
رقم الايداع: 978 - 9931 - 719 - 93 - 9
الناشر: دار ومضة للنشر والتوزيع والترجمة
E-mail : wamdaedition@gmail.com
dar.wamda7@gmail.com
Tel : 00213657300415
المدير العام: سميرة قنون

تصميم: LA CASA NEGRA

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر
يمنع نسخ أو استعمال الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية
أو أية وسيلة نشر أخرى من دون إذن خطي من الناشر

شاهر جوهر

عُزير ينام من جديد

رواية

دار ومضة
للنشر والتوزيع والترجمة

إلى عمران عويتي من قال لي ذات مرة، حين وجدني نازحًا وسط الرّكام ويائسا كيأس عزير: "لِمَ لم تعد تكتب؟ فلم يحدث شيء في هذا العالم إلّا وحدث مثله، فذات يوم سيحيي الله هذه الأرض بعد موتها".

إلى شبّان سوريا

أولئك الّذين بدأوا بتحقيق أحلامهم من حيث انتهى كلُّ شيءٍ.

"يمكن للقبائل ذات اللّغة المشتركة أن تتبادل العداء"

بروموليه بودولني

الأوّل من مارس 2015

رابيت شاطئ جميل، حبّذا لو تعلمون كيف قضيت أيامي الأخيرة متردّدًا بينه وبين مخيم اللّاجئين، وكم وجد الخالق هنا أشياء جميلة تستحقّ التمعّن والدّهشة، لكن في حياتي السّابقة ما يستحقّ الحديث عنه ويجدر بك معرفته أكثر من مغارة تاباكارا وتمثال الصياد والطبيعة الخلّابة وكذلك الزّوارق لطيفة الشّكل في هذا المكان الدافئ، فمن يرغب في كل ذلك سيجده فقط في جزيرة لامبيدوزا جنوب إيطاليا. فهنا وخصوصًا في شاطئها هذا ستشعر برائحة التاريخ حتى كبدك، أو هذا ما يحبذ الإيطاليون قوله عن مدنهم بتكرار، فهم أناس يعرفون كيف يحبّون بلادهم.

إنها مدينة طيبة يا عزيزي، تزخر بإرث فينيقي وروماني أصيل. حين أسير في شوارعها تطفح نفسي برغبة عارمة في الاسترخاء، فكل شيء هنا أصيل، حقيقي، ومشبع بالنخوة ولا يذكرني سوى بمن تركتهم خلفي في سوريا، وكانوا سببًا حقيقيًا في وجودي هنا.

لا أعرف إن كان من الجيّد أن أبدأ الآن من هذا المكان، لربما الأنفع القول (كيف أبدأ؟)، فأنا لا أنفكُّ مذ وصلت إلى هنا عن التفكير في البداية، لأني أعلم أنها قد تكون البداية لكل شيء بالنسبة لي، وأنّني إن رغبت في تدوين

كلّ شيء أكون كمن ينظّف أوراق الغابة بمنشفة، لكن ما أنا على ثقة به أن هناك من ينتظر كلّ ما سأكتبه الآن، ما يعني سبب بقائي حيًّا حتى هذا الحين.

مذ وصلت لهذه الجزيرة ونفسي تنزع لأيامٍ خلت، في الغربة لا أكثر خبثًا من ذكرى أيامٍ خلت. من قال إن الذاكرة تتسلّل إلينا ببطء، من قال إنها جزء من رحمة، إنها لعنة كاملة تهاجمنا بلا رحمة يا صديقي.

لا أنكر أنّ الأيام الأولى في هذا المكان كانت مملّة، قاسية ورتيبة والأهم أنّها مكلفة للاجئ، لكنّي لو قمت بموازاتها بحجم الخسارة ستكون جنة فريدة مقارنة بأيام قد مضت بجحيمها، لأن من يختبر الحرب لن يكرّرها أبدًا، رغم أنّنا أمّة تحبّ أن تكرّر تأكيداتها، لذا كشاب جرّب الحرب قرّرت أن أهرب بقدر وبلا قدر، لهذا تجد الجميع يغامر في الابتعاد مثلي قدر الإمكان وصولًا لمجتمع الوفرة الغربي.

اليوم قرّرت أن أخبركم بكل شيء، لكن بنصف الحقيقة إن شئتم، لأني أضعف من أن أرويها كاملة. فالحقيقة يا إخوتي كالحرية دواء مرّ لا قدرة لنا على تجرّعه دفعة واحدة.

عند رجل الشّاطئ ها أنا الآن، أراقب مويجاته الصّغيرة الخدرة وهي تتدافع من بعيد لتصل إلي متعبة ولتتكسر على قدميّ، لتنحسر بعدها مشكّلة شريطا من الرّغوة البيضاء على طول الشّاطئ، وأمامي على شاطئه الأزرق

المتعرّج كأفعى رابضة والممتدّ في البعيد بلا نهاية كتلك الحرب وكحامل لوصية ترامت بي الذاكرة إلى وراء، إلى كلّ من بقي داخل السّور ولم يقو على العبور.

في هذه الحرب هناك ما هو أسوأ من فقد الأحبة أو من النّزوح في يوم قائظ أو حتّى من الحصار، فتذكر كلّ من تركناهم خلفنا وكلّ من فقدناهم في تلك السّنوات موجع وأسوأ من كلّ هذا.

قيل لي أن للبحر قدرة على تضميد الجراح المفتوحة، لكن لا أدري لم يحاصرني الادرينالين هذه الأيام بسَعر فتعضّني الذاكرة من كلّ جانب وتؤجج جروحي المندملة، لا أدري لما يقرضني صوته كلّ حين، لما من بين الجميع وحده عمران يشغل القسم الأكبر من تلافيف هذا الدّماغ. كلّ شيء هنا يذكّرني به، فأتذكّر بضياع كلّ ما جرى بيننا كما أراد، كشرطي دوّار أضاع صافرته.

لم أدرِ أنّ للذّاكرة سلطة يا عزيزي كتلك الّتي صببنا لأجلها دمًا ودمعًا، ما أدريه الآن وبحق أنّ البحر لازال كما صوّره لي تمامًا قبل سنوات، وكأنّني أراه الآن للمرّة الأولى يحكّ لحيته الخفيفة ويزمّ أنفه الجميل بكبرياء:

"كبيرًا وصافيا وأزرق

ليس مثلنا

لا يتغيّر

وفيه متّسع لنا ولحكاياتنا ولذاكرتنا جميعًا..."

إنه كذلك، كبير وصافٍ وأزرق، لكن فيه متّسع لجثثنا و لخيبتنا جميعًا.

خلفي على الشّاطئ ببضعة أمتار من الذّكرى وقف عجوز يشاركني اللّجوء والخيبة في هذه المدينة، يرتدي قبّعة صوفية غطّت كامل رأسه باستثناء شحمتي أذنيه، كما بدا أن وجهه أتعبته بعض الكدمات، يواسي شابًا صغيرًا احتضنه كابنه، رمقت عيونهم أفق البحر البعيدة بنظرات حالمة، وبعجزٍ بادٍ استمع الابن لأبيه باهتمام :

"خلف هذا الأفق تقع بلادنا، وما أن تأتي رغبة الله سينتهي كلّ شيء هناك يا ولدي، ستنتهي الحرب، ويرجع كلّ شيء كما كان، عندها سنعود".

أدرك العجوز أني أستمع إليه بلا وعي، نظر إلي ثم ابتسم بتعب، ابتسامة من يطلب منك ستر كذبة. لأنه يعلم مثلي أن على هذه الأرض لن ينتهي شيء.

رددت ابتسامته بأخرى مثقلة بالهموم، أدرت وجهي عنه، وعلى غفلة أدركت أنّي عدت وحيدًا، مشدوهًا، بلا عائلة وبلا أمل.

لتخطفني الذّاكرة مجدّدا إلى عمران بالذات

دمعت عيناي ولم أقو على الصّمود، توازنتُ على قدميّ وشرعت أبتعد عن الجميع أواري دموعي، في تلك اللّحظة أدركت فقط أنّ مخزون الدّمع هو بحجم مخزون الغربة والخسارة والضّياع.

فوق سطح الماء الّذي بدأ يروق طفت بعض الزّوارق بتؤدّة، وتناغت نوارس في عرض السّماء، فامتزج هدير البحر مع صوت عمران في ذاكرتي وهو يقول بتعب:

"عندما ترى البحر ستحبّه فملحه ممدود بحبل السّرّة... خطوة أخرى وينتهي كلّ شيء..."

أحرّك ساقاي بسرعة حتّى يختفي صوته، لكنّه يعود من جديد، ومن كلّ مكان:

"من لم يغرق بدموعه طوال سني الحرب والجوع والحصار وفقد الأحبة، سيجيد السباحة هناك حتمًا... اليوم نفترق وعندي أمل في قراءة ما ستكتبه يومًا، فحين ترى الشّاطئ، اضرب بيديك قشرة الماء الرّخوة بقوة لأننا نحتاج أن تجد قدماك أرضا صلبة، عندها فلتحكِ للنّاس كم تعبنا...أتفهم؟ أخبرهم بكلّ شيء إلى أن نلتقي".

وقفت، دسست أصابعي في أذنيّ مصوّبًا عينيّ إلى الفضاء الوسيع، فتكسّرت على وجهي نسمات الذّرور الكثيفة الّتي علت وجه البحر، ثم وجدتني أصرخ بأنانية مفرطة وبلا وعي ومُوَيْجات الشّاطئ الدافئة تتسلّل تحت قدميّ:

لا تسألني عن الذين ماتوا يا عمران

هم حمقى، لم يبكوا بما يكفي في هذه الحرب.

لكنّي - كما أردت - سأخبر أولئك الآمنين خلف قوس البحر الأزرق كم كنّا حمقى.

الفصل الأول

قبل البعثة المحمّدية بثلاث سنوات

١

في جنوب غرب سوريا وقبل آلاف السّنين شكّل الله عش التّرك، قرية صغيرة وهادئة، وربما قبل أن يكون هناك وادٍ على أطرافها الجنوبية والذي يفضل علماء الطبوغرافية المتدينين وصفه بأنه جزء من لعنة نبي الله لوط.

تقول المآثر أن في هذا الوادي هبط آدم قبل ملايين السّنين و هنا حدثت جناية قابيل بحق هابيل، وإن صحّت تلك الرّواية الشّعبية، فمن الطبيعي أن تعيش هذه القرية خزي الرّحيل الطارئ.

سمّيت بهذا الاسم في مراحل متأخّرة من القرن الثّامن عشر حين عسكرت حامية تركية على سفح الوادي ومنعت الناس من ورود بئرها وجعلته لجندها ودوابها. و مع مرور الوقت تبدّل اسمها كثيرًا، فالبعض يختصرها باسم (العش)، خصوصًا بعد أحداث مارس 2011 حين أخذت الحكومة التّركية بدعم المعارضة السّورية سياسيًا في المحافل الدّولية وعسكريًا على الأرض ضدّ السّلطات في البلاد، لهذا أخذ موّالو الحكومة في البلاد يقضمون الجزء الثّاني من اسم القرية. أمّا المعارضة المسلّحة وبعد سيطرتها على القرية ولكي تستميل وتحرّك عواطف المجتمع الدّولي نحوها فيلائمها اسم آخر وهو "جوّا السّور" حتى تؤكد وقوعها تحت الحصار.

في العش أو عش الترك أو جوّا السّور، في هذا المكان توازنت عائلتي على قوائمها، وتعلّمت تصويب هامتها والنظر إلى السّماء، تمامًا كما فعل الإنسان الأول من شحذ الحجر وربطه بعصا لدقّ رؤوس الأيائل والأرانب، فلم يعد بربريًا فنطق وتكلّم بلغة الهموروكتس ليتمرد سريعًا على ذلك ويرتدي بنطلونه الجينز ويصفف شعره للوراء بطريقة عصرية ويمارس عمله كموظف حكومي، ولا يناسبه في ذلك أفضل من أن يكون سوريًّا معاصرًا.

يجول في الذّاكرة الآن بيت صغير من الحجر الأزرق المقطوع بإتقان وقد لزب حوافه الطّين، يغطّي سقفه عدّة ألواح من التوتياء صُفّت تحتها عيدان من القصب المائي المجوف لتكسر حرارة الشّمس. هكذا بنى جدّي منزله الأول عند عين الدفلة، فوق خربة قديمة بالقرب من بئر ردمتها فواعل الزّمن، هو أول منزل يشيّد من الحجارة والطّين في هذه القرية بدل الخيمة.

أحاط قطعة أرض بسورٍ من الحجارة ثمّ اندفع بعزم وقام بتوسعة بئرها، فكان من غير الواجب لبدوي نسبها له أمام الآخرين، لأنّها باتت له بأيّ حال، ولو كان جان جاك روسو سوريا لجزمت أنّه استلهم من جدي عبارته الشّهيرة وقال فيه عن أوّل مجرم في التاريخ.

كان ذلك بالنّسبة لمن هم حوله بداية لترك الخيمة وبناء بيوتهم الطينية وفق ما توافقهم الطبيعة، إذ لم يكن جدّي بالرَّجل العاديّ بين قومه،

فشكّل معهم على إثر ذلك بمرور الوقت تجمعات بشرية بأسس متينة. فالسكّان شأنهم في جنوب البلاد شأن الشّعوب السّورية القليلة على أي حال، استطاعوا أن يحتفظوا على امتداد القرون وحتّى آلاف السّنين بتسميات اتحاداتهم العشائرية القبلية القديمة منها والمتأخّرة نسبيًا، لذا أحبّذ حين أعجز عن الحديث عن عشّ الترك من إسقاط كلّ ما قاله المؤرّخ بروموليه بودولني عن أفريقيا.

في الربع الأخير من القرن الماضي أصبح السّكّان في عش الترك أكثر استقرارًا وانسجامًا، خليط مبعثر ومتماسك مثل مساكنهم، تناثرت بيوتهم الطّينية بمرور الوقت هنا وهناك فأطلق على هذا الجزء الطيني ممّن امتهن سكانه الزّراعة وتربية الماشية اسم عشّ الترك القديمة أو الغربية لتمييزها عن اثنتين وتسعين وحدة سكنية من الإسمنت المسلّح دأبت الحكومة في أواخر السّبعينيات على بنائها في القسم الشّرقي بعد أن أصبحت القرية آهلة بالسّكّان، وزاول أغلب سكّانها الوظائف الحكومية مع زراعة وتربية الماشية والتهريب.

ومع دخول القرية ضمن المخطّط التّنظيمي أصبح يربط جزئيها عقدة مرورية تصبّ بها أربعة طرق رئيسية، إحدى هذه الطّرق يشقّ قلب الوادي جنوبًا في انحدار قاسٍ، في حين يربط آخر شمالًا القرية بالمدينة والّتي تبعد عنها مسافة ثلاثين كيلو مترًا ويزيد.

تعرف هذه العقدة بدوار عاصم بيك، ومع مرور الوقت تلاشت البيكوية من الاسم وبقي دوار عاصم شامخًا ونقطة علّام للعابرين، سمّي بهذا الاسم نسبة لعاصم بيك إقطاعي القرية القديم. فأسماء كقوطرش ومن بعده الزركي، زيكو الفحّام، حبّاب، عنبر، قره شولي، الحسيبي، غشّام وأخيرًا عاصم بيك هي أسماء لإقطاعيين كبار نبتوا كالفطر في تلك المنطقة الممتدّة من هضبة الجولان وحتى غرب سهل حوران، ومنذ بداية العقد الثّاني من القرن الماضي تنازعت هذه الأسماء على هذه المنطقة لبسط النّفوذ والسّلطة بالحديد والمكيدة.

روت لي أختي أسيلة ذات مرّة سبب تلك التّسمية، والّتي ترجع لمنزل شيَّده عاصم بيك في القرن الماضي ليكون ملجًا للعابرين، وذلك إيفاء لنذر قطعه على نفسه بأن يبني منزلا للمشرّدين والمحتاجين إذا عافى الله أحد أبنائه من مرض عضال، وبالفعل تحقّقت دعواه، لكنّ أحفاده بعد وفاته أخذوا من دمشق سكنا لهم لذا سرعان ما تنازلوا للحكومة لإزالة المنزل لرغبة البلدية شق عقدة مرورية مكانه.

أمضيت طفولة شقية هناك، لعبت على درابزين الدوار، وسرقت زهورا زرعتها البلدية حوله، وحفرت ذكريات على جداره الإسمنتي وعلى تمثال الشّاعر أبو تمام الّذي نصبته البلدية لاحقًا في وسطه.

٢

لم تكن لتصلح طفولتي ولا حتى الحديث عنها دون عمران، ولا أعتقد أني من دون ذاك الصّبيّ الأسمر المشاكس كنت لأستمتع بتلك السّنوات القصيرة من حياتي. لقد كوّن جزء كبيرًا من كلّ شيء بالنسبة لي.

فكلانا من جيل عاش الأبيض والأسود، عاصر زعيمين، وعاش حربين، كما ارتدى بناطيل الفرزاتشي ذات النمط الكلاسيكي في التسعينيات، وجرّب كلّ قصّات الشّعر التي انقرضت وأضحت مثار سخرية الجيل الجديد من البانكي و قصّة الأسد.

وقبل ذاك الصباح الريفي الدافئ من ربيع العام 1994 ليس هناك ما هو مثير أو يستحقّ عناء الحديث عنه. حين قطع علينا ذاك المدير الثّخين حصّة الرياضيات، دخل و معه طالب جديد، أسمر بشعر قوقازي منفوش، مموّج بنصف دائرة حلزونية، يرتدي شورتا طويلًا وصندلًا بلاستيكيا زاحفا ما ميّزه عن صبية هذه القرية.

وقف المدير بروحه الزّنقة وأخذ يجول الصّفّ وقد ربط يديه خلف ظهره، ثمّ حرّر سبّابته لتجد طريقها لتحكّ أنفه، بطريقة اعتاد على فعلها، كلّما فعل تلك الحركة أستشعر إصبعه تهرش في دماغي لتحرّض نواقله العصبيّة الحركيّة فتدفعني مع الجميع للضّحك في هجمة دوبامين كبيرة ومدوّية.

انفجر من الغضب، زعق ثمّ باشر في معاقبة الجميع دون أيّ مقدمات، فجيل التّسعينيات جيل يعلم جيّدًا أنّ المدير رجل مثقّف يحبّذ دومًا إيصال رسائله بأعنف اللّكمات. لهذا تناول مسطرته وطاف على الجميع واحدًا تلو الآخر، وأيّ عقوبة، رفَع المسطرة في الهواء في وضعية السّيّاف وأخذ يهوي بها على راحة اليد، ولا يبالي إن تضرّرت اليد أو كسرت، فذات مرّة كسر إصبع حفيظة، طالبة في الصّفّ السّادس ولا أحد من عائلتها سأله عن السّبب حينها، فلهذه المدرسة كما في أيّ ثكنة عسكرية في البلاد نظام قاسٍ لا يعرف الرّحمة، لهذا يتماشى الجميع مع هذا القانون بانتظام.

حين اقترب دوري لم أجرؤ أن أعترض، كنت أحبّذ أن أصرخ في وجهه وأشير بإصبعي إليه وأقول: "لستُ عبدًا لديك"، لكنّي لم أفعل، ولا يبدو أنّي سأفعل في أيّ وقت آخر، لأنّي أعرف إن قلت ذلك سيكرّر قانونه العسكري المعتاد "المكافأة فردية والعقوبة جماعية يا ولد".

مددت يدي وأشحت بوجهي بعيدًا عن وجهه المكرّر، اعتصرتُ عينيّ كي لا أراه وهو يعضّ حاجبيه بحقد أثناء ضربي، فحاجباه وحدهما حين ينظر إليك عقوبة بحدّ ذاتها.

مرّت الدّقائق الأولى بعد العقوبة عصيبة ومشحونة بالرّهبة والحقد، وكغيري من الطلّاب أتلمّس قواعد المقعد الحديديّة بحثًا عن برودة علّها تخمد نار يديّ المتورّمتين.

عاود الجلّاد يذرع الصفّ جيئة وذهابًا ويداه خلف ظهره، وعلى يسار الطاولة وقف عمران يشاهد بعينين صغيرتين استبدّ بهما الخوف والهلع كلّ ما جرى، قلت في سرّي كم كان فأل نحس علينا، ولكأنّني أجزم أنه لو تسنّى لي رفع صوت ضمائر الصّبية في الصفّ لردّدت بصوت واحد "هذا الطّفل نحس".

زعق المدير بغضب:

-على الأقل احترموا مدرِّسكم...

يقصد مدرّس الرياضيات، وهو رجل في الخمسين بنظّارات طبّية من ذوات الإطار الأسود السّميك وصلعة كبيرة فوق رأس مسنون، وقد أسند كوع يده إلى النّافذة، يدخّن ويحدج الأفق البعيد، وكأن كلّ ما حدث حوله من أذيّة هو نشاط صفّي معتاد.

-أو خذوا اعتبارا لزميلكم الجديد، آه لقد نفّرتم صدري، تقدّم يا عمران، تعال يا بني، رحّبوا به جيّدًا وبلا مشاكل، قلت بلا مشاكل.

ربّما كلمة (بلا مشاكل) والتي يكرّرها كثيرًا، كلمة مجازية يحبّذ هذا الضّخم قولها في غير مكانها أصلا في هذه المدرسة، ومن يدري لربّما يكرّر ذلك لأنّه يعرف كم أنّنا جيل توّاق للأذية، لهذا كنّا سببًا في حمل البلاد لخوض حروب عديدة.

غسلت نظرات المدير وجهي الوحيد في مقعد الصفّ الأخير، وبينما أتلوّى من الوجع صاح إلي:

-أنت، اعتني برفيقك جيّدًا.

ثم حوّل ناظريه إلى عمران:

-وأنت إياك أن تأتي غدًا ولم تحلق هذا الشّعر المنفوش وتغيّر من هندام الشّوارع هذا، أنت الآن تخضع لقوانين هذه المدرسة.

ثمّ غادر الصّفّ وهو يغمغم بعصبيّة.

لا أعرف إن كنت حمّالًا صالحًا لوصية، وإن كنت بالفعل قد اعتنيت بعمران جيدًا طوال تلك السّنوات، ومن منّا اعتنى بالآخر، ولا أعرف إن كان عمران باستطاعته حقًّا التّماشي مع هذا المجتمع الجديد بلا تمرّد.

فالكلّ يطلب منّي الاعتناء به، نحن سواسية في العمر، بل إنه يكبرني بثلاثة أشهر، كما إنه أطول مني بعرض إصبع.

سألت أبي ذات مرّة هذا السّؤال، لم لا يطلب أحد من عمران أن يعتني بي. المدرّس، المدير وحتّى أن الحاج مرتضى والد عمران جاء ذات مرّة ليطمئنّ عليه في المدرسة، وضع يده على كتفي بحنان وقال لي: "انتبه لصديقك جيّدًا".

ضحك أبي لسماع تذمّري واحتضنني بقوّة، ثمّ رفعني بين ذراعيه وقال لي وهو يعتصر ذهنه ليختار كلماته بعناية، وكأنّه يعلم أن كلماته ستبقى محفورة في داخلي لسنوات، قال وهو يبتسمُ "إنَّه يشعرُ بالغُرْبة، فكلّ الغرباء أيتام".

لم أعِ شيئًا ممّا قاله حينها، سوى أنّي فهمت أنّي من الممكن أن أكون أبًا صالحًا حين أكبر، وأنّ "الأيتام أحباب الله"، فهو دائما يكرّر ذلك حين يأخذني معه لنزور دار الأيتام في المدينة المجاورة، لكن وبلا مواربة لا أظنّ أنّ أحدًا اعتنى بي طوال تلك السّنوات كما فعل عمران.

أومأت برأسي لكلمات أبي الأخيرة متظاهرًا أنّي فهمت كلّ ما أراد قوله، فهذا التّظاهر عادة سيّئة لم أستطع التغلّب عليها حتّى اليوم، لكنّني لست الوحيد ممّن يمتلك مثل تلك العادات، فهذا الصّديق الجديد وأستطيع أن أسمّيه الوحيد أيضًا لديه عادات سيئة. أذكر منها، بل من أكثرها سوءًا بالنسبة لي كأن يلوذ بالصّمت لفترات طويلة، فهو يمقتني حين يفعل ذلك، وأنا لا قدرة لي على مرافقة من يحبّذون الصّوم عن الكلام مثله، كنت أعتقد أنه يملك عيبًا في نطقه كما لدي، فأفأة، مأمأة أو أيّ عيب آخر يدفعه للاعتصام بالصّمت هكذا، لكن يبدو أنّه عيب في العادة لا أكثر.

أذكر جيّدًا أول يوم لمعرفتنا، جلس بقربي في المقعد جامدًا بلا حركة ولم يتلفّظ بحرف، كم كرهته وقتها، اكتفى بوضع قلمه أمامه وعقد يديه على صدره مستمعًا للدّرس، ثم جوّر عينيه بعصبيّة فوق حاجبين مجدولين، ما يوحي للجميع بما فيهم أنا كم كان مكرهًا لهذا الوضع الطارئ الّذي بات يعيشه على مضض.

منحته ورقة بيضاء من دفتري لعلّي أحرّك ماء وجهه الرّاكد، إذ يبدو أنّه لم يكن مهيئًا للمدرسة بعد. ولكأنّه جاء من دغل أو غابة، التفت إليّ فغسلت حواجب الشّمس المتسلّلة ببطء من النّافذة، وجهه الأسمر. فشعره المهوّش، عيناه العسليّتان والنديّتان على الدّوام كعيني أنثى أثقلها البكاء وصافيّتين كنبع في الوادي، أنفه النّامي بين وجنتين قشيبتين على الدّوام مثل حبّة فطر متوسّطة من نوع بورتوبيللو، صمته الطّويل والّذي أكاد أجزم أنّه قد يمتدّ لنهار كامل دون أن ينبس بحرف، كلّها كافية لتخبرني كم لعبت الهندسة الوراثية التطوّرية دورها في شكله وطباعه المميزة، وأنّها كافية حدّ الكفاية لأعرف سبب رهبة كلّ من رآه للمرّة الأولى.

٣

ثمّة رأي ريفي في الجنوب يقول أنّ ما يأتي سريعًا يذهب سريعًا، لنختبر هذه النّظرية، فلربّما هي الحقيقة الوحيدة الّتي يحبّذها ويؤمن بها عمران، وأنّها السّبب في أن استمرّت صداقته المتأنّية لي حتّى نهايتها.

فالأصدقاء بالنسبة له كأنواع الفطر منها السّام ومنها النافع، ولا تُختبر جودتها إلّا بعد الطّهي، لهذا سيقت الأيام بيننا ببرودة، تبدأ بالسلام عليكم وتنتهي بـ إلى اللقاء، لا أكثر من ذلك.

لكني لا أستطيع أن أنكر تأثره البسيط والدّفين الذي يتولّد لحظة استهزاء أحدهم أو سخريته منّي حين أتكلّم، لم أعتقد أن يتطوّر يومًا ذاك الشّعور للمواجهة المباشرة وللدّفاع عنّي، لم يفعلها أحد قبله، كان يكتفي بابتسامة، ابتسامة صغيرة تنزرع على طرف فمه الجميل، كتلك الّتي ترسلها فتاة لشاب تراه للمرّة الأولى.

بالصّدق لم أكن أرغب بأكثر من ذلك، بأكثر من تلك المشاعر المخيّمة في ابتسامة مؤازرة لما أعانيه من تلعثم واضطراب في الكلمات.

أكّد لي الطّبيب يومًا أنّ سبب هذا التّلعثم إما خطأ وراثي أو هو نتيجة اضطراب في وظائف الأعصاب الّتي لها علاقة بالنّطق، وحتى يواري فشله في علاجي طبطب على ظهري بحنو وقال:

- إنّ أربعة أضعاف ممّن يصابون بالتّأتأة هم من الرّجال مقارنة بالنّساء في العالم، وأن واحدًا بالمائة من سكان العالم يتلعثمون، أي قرابة سبعين مليونًا من البشر حول العالم، وأنّ قسمًا كبيرًا من المصابين يتعافى تدريجيًا مع مرور الوقت.

وجدت تلك الذّرائع مبتغاها لدى والدي، فوالدي رجل لا يلائمه في إقناع أحدهم أكثر من قول الحقيقة لذا كان يكرّر كلام الطّبيب هذا في كلّ مناسبة، وكأنّه يريد أن يقول لي أنّي لن أشفى أبدًا، وأنّي لست الوحيد في هذا العالم بهذا العيب، لذا عليّ التّأقلم مع هذه الحالة. فمذ نطقت وأنا مصاب بالتأتأة والتّلعثم أو بما عرّفه الطّبيب الّذي تابع حالتي لسنوات باضطراب التّخاطب، إذ يزداد النّطق صعوبة في حالات الغضب والإحراج والخوف، ويرافق ذلك إغماض العينين وفتح الفم والشّدّ على قبضة اليد أو على اللّسان داخل الفم، ما جعل حياتي المؤلمة مسرحيّة هزلية يسخر منها الأولاد.

اعتدت ذلك، بل كنت مكرها على اعتياد ذلك، لكن شيئان وحيدان لا طاقة لي لاعتيادهما من هذه العطية الإلهية التي لازمتني منذ الولادة. الشيء الأول هو ترديد النّشيد الوطني في الباحة العامة أمام الطلاب نهاية كلّ أسبوع، إذ يصرّ المدير على طلب ذلك كي أخرج من العيب النّطقي. كنت أعلم نيته حتّى لو لم يقل ذلك صراحة، وأنا أقدّر له صنيعه هذا وهذه اللّفتة الطّيّبة.

في حين الشّيء الآخر هو مصطفى ابن أمين الفرقة الحزبيّة في بلدتنا، كان والده متعجرفًا على النمط الأوليغاركي، لهذا كان من الطّبيعي أن يلد ذاك الديناصور فيلًا. فهذا الضّخم الّذي حوّل رقبتي مطارًا تحطّ عليه يداه الثّخينتين، وجعل ظهري مطيّة للجميع، لا يعجبه في تأديب الصبية وكسر شوكتهم أكثر من السخرية مني على الملأ وازدرائي وامتهان كرامتي. كان يرهب أعداءه الأقوياء بالتفنّن في تعذيبي، أنا الطّفل الضّعيف، كما كان يجبرني أنا والصّبية الضّعفاء مثلي بالاستماع إلى قصصه المملّة ومغامراته المكذوبة والّتي كان يرويها بتفاصيل دقيقة، فمثلًا حين يتحدّث عن ذهابه للحمام أكاد أجزم أنه يستطيع تأليف كتاب في رحلته تلك التي بإمكانه اختصارها بكلمتين (ذهبت للحمام)، أوف إنّه يعي كيف يعذّبنا بسرده لقصصه تلك.

لهذا لا أعتقد أنّ أحدًا ما أحبّه في هذه البلدة، مبروم مثل كرة من اللّحم النيء، لا يهنأ له عيش ولا يسرّه أكثر من أذية أحدهم، لهذا يناديه من لا يخشى غطرسته بـ دربل أي الصّبي كتلة اللّحم، كرهت المدرسة لأجله، كرهت حتّى لعب كرة القدم معه، فحين يرمي الكرة بذراعيه الضّخمتين يتقصّد دومًا أذيّتي.

لم يولي عمران لتحذيراتي منه بالًا، لكن الأمور تغيّرت كلّيًّا في ذاك النّهار حين رفضتُ اللّعب معه في كرة القدم، تركت الفريق وجلست مع عمران الّذي انزوى عن الجميع مذ قدم لهذه المدرسة، اقترب منّا أكثر، وكنت أعلم أنّه لم يكن ينوي على خير.

وقف ليس ببعيد في باحة المدرسة، يتقاذف الكرة بين يديه الثّخينتين بحركات بهلوانية، ثمّ صاح إلي:

-هيه تعال

أكره ذاك الوجه الأشقر مثل مؤخّرة طفل في يومه الأول حين ينظر إليّ من خرم عينيه الضيّقتين بتآمر. هممت بالرّحيل، ثمّ أجبته في إثر ذلك:

-كرمى لله لا أبحث عن المشاكل، لـ لنذهب يا عمران

اقترب أكثر، ثمّ وباستهزاء أخذ يمأمِئ ويفأفِئ:

-أمـ أمـ أما أنا فـ فـ فبلى

رُبط لساني في إجابته كما العادة:

-لم.. لم.. أفـ.. أفـ... أفعل لك شيئا، اتـ.. اتـ.. اتركني بحالي

دوّت في الأرجاء ضحكة كبيرة من رفاقه، ضحكة بلا روح، اقترب منّي ثمّ سحبني إليه من ياقة قميصي، وبحركة بسيطة جدل رقبتي تحت ذراعه الضّخمة، ثمّ زعق في وجهي بغضب:

-ومن أنت لتفعل لي شيئا يا مؤخّرة الدّجاجة، ينقصنا لاعب ولا أريد أن أفسد نهارك، قف في فريق الخصم وإلّا...

استقام عمران على قدميه وجحره بعينيه، فلِعَيْني عمران نظرات تثير التوجّس، صحيح أنه لم يكن ذا بنية جسمانية قوية، لكنّه ذو قلب شجاع، أدركت ذلك من حينها، لطالما كنت أعرف أنه الخاسر في حال تصادما في عراك، لكنّي من حينها عرفت أنه لا يترك مثلي الأمور للدّعاء والتخمينات والصّدف.

- وإلّا ماذا؟ اتركه وكلّمني أنا (قالها عمران بعصبية).

-أريده هو، لا شأن لي بك الآن، لو أردتك لما منعني عنك أحد.

ثمّ أفلت مصطفى رقبتي واستدار نحوه نصف دورة حتى صار على مرمى نفس منه:

-يبدو أنّك لا تعرفني، أنا كلّ شيء هنا، أتفهم ما أقول أيّها القرباط النوريّ يا صاحب الخيمة، أم أقولها لك كما تغنّيها العصفورة؟

ثمّ أقفل حديثه وهو يرفرف بيديه ويزقزق كالعصافير، فبدا شكله مثل فيل ضخم قرّر أن يغرّد، أثارت عمران تلك الكلمات، تورّمت أوداجه غضبًا، ثمّ همّ بقتاله لولا أن فرّقهما صوت الجرس الّذي أعلن نهاية الاستراحة.

كان سكّان البلدة وفي عموم الجنوب يطلقون على كلّ شخص يسكن خيمة بالقرباط أو النوّر وهم قبائل دونية انتشرت في البلاد منذ مئات السنين، بنوا خيمهم قرب الينابيع وامتهنوا صناعة القدور والصّحون وبيع الخردة

ليعتاشوا منها. ولم يعتبرهم السكّان جزءًا من هوية هذا المجتمع رغم حمل قسم منهم لبطاقة شخصية.

أمّا عن عائلة عمران فقد تنقّلت مع مجموعة من العائلات بين القرى والبلدان طويلًا، قبل أن تستقرّ جنوب منزلنا عند نبع البلدة القديم، لم يكن يُتعب عائلته التنقّل والتّرحال، فهم من أقلّية عابرة للهوية وشعبها يتملّص دومًا من عبودية المكان.

روي عنهم في البلدة مذ شيّدوا خيمهم الكستنائية الكثير من القصص، فقد قال البعض أنهم مجموعة من اللّصوص والمتشرّدين صبغوا جلودهم بعصير الفواكه ليأخذ اللّون الكستنائي، وخلقوا لغة خاصة بهم تسمّى لغة العصفورة أو الزّقزقة وذلك ليتمكنوا من حفظ أسرارهم. والأعظم من ذلك أنهم حُمّلوا وزر صلب المسيح وعلى ذلك رفض قسم كبير من الأهالي استقرارهم في القرية وذلك لما قيل في المآثر أن المسامير الّتي دقّت في يدي السّيّد المسيح كانت من صنع حدّاد قرباطي، ومنذ ذاك الحين وقد تقطّعت آصالهم في جميع البلدان، حتّى بات يطلق عليهم "الشّعب الّذي لا يُلمس".

لم أكن لأعي حينها ما تعني تلك الكلمة حتّى جعلت رأس عمران يشتعل في تفكير عميق طوال النّهار، حيث بدا على سيماه توتّر واضح. ولم يكن من الجيّد سؤاله عن ذلك، وعلى وجه الخصوص حين أخذ يجهّز نفسه لثأره. فهو ليس ممّن يترك نهايات سائبة في أيّ قضيّة.

لهذا وفي الصّفّ اقترب منّي في المقعد وسألني بثقة:

-هل ستساعدني لنضع حدًّا لهذا الغبيّ؟

للمرّة الأولى مذ عرفته قبل عدّة أشهر لم يكلّمني بتلك الصّراحة والمباشرة، أما أنا فلم أعتقد يومًا أني أستطيع الوقوف في وجه ذاك الضّخم، لكن لطالما كنت أشرد في أحلام يقظتي حين أسند رأسي على الوسادة متمنّيًا أن يمنحني الله قوّة خارقة تمكّنني من تأديبه لما يفعله بي، لكنّه قويّ جدًّا، عليّ الاعتراف بذلك ، فقد كان يضرب من هم أكبر منّا سنًا، إنّه لا يخاف من أحد، لهذا زفرت ما في صدري من هواء ثم أجبته في قلق:

-بالطّبع، فـ. فنحن أصدقاء، لـ. لكن .. لكنه ليس بمفرده، لـ. لديه رفقة وأقارب أقوياء مثله.

-لا قوي سوى الله، ألا تريد أن يتوقف عن التحرّش بك وأن يوقف إذلاله لك كلّ يوم، سيتمادى أكثر إن لم يوضع له حدّ، صدّقني إنه يتقوّى من ضعفك.

بدا واضحا أنه لن يؤخّر انتقامه، ورأيت أني سواء ساعدته أم لا فإنه سيضع حدًّا لهذا الطّغيان حتى إن لزم الأمر بمفرده. ورغم كلّ مساوئي وضعفي لست ممن يترك رفيقًا في منتصف الطّريق، لهذا دفعتني حماسته للقبول وأنا على يقين أننا خاسران من هذه المعركة.

كان لابد من خطة للانتقام، لهذا طرح علي خطواته، كانت خطة جيدة، أظنّ أنّ "سون تسو" لو كان بيننا لكان وضعها كإحدى فنون حربه، مع بعض القلق من الدّور الذي سأمثله فيها.

بناء المدرسة مكون من كتلتين إسمنتيتين متجاورتين ومسوّرتين بسياج، يفصل بينهما دهليز متّسع يزداد ضيقًا في نهايته حتّى مسافة أربعة أمتار، ما يجعله لا يسمح سوى بمرور طالب واحد وفي أقصى سعة له لطالبين إن كانوا هزيلين مثلي ومثل عمران، يسلكه الطلّاب بعد نهاية الدوام للعودة للمنزل كلّ يوم.

مصطفى وبخيلاء ما كان ليسمح بمرور أحد من الطلّاب قبله أثناء مغادرته المدرسة، وربما السّبب هو كتفاه العريضتان تحولان لمرور أحد غيره. لهذا كانت كتفاه سبب إلهام عمران ليضع خطته، حين قال لي (إن كنت عظيم المنكبين فلتمشِ مشية السّرطان).

لم أفهم ما كان يقصده، ولم أعي كلّ ما كان يجول في رأسه، لكن إصراره يوجب منّي الثقة.

انتظر عمران عند نهاية الدهليز حيث يبلغ الممرّ منتهاه في التضيق، بينما كنت أسير خلف مصطفى ببطء وحذر شديد، وحين لاح لعمران اقترابه من مكان المعركة صاح عليه بغضب:

-ألا تريد أن تعتذر منا يا رأس الفيل؟

ثم أشار برأسه إلي، التفت مصطفى ببطء خلفه، كانت المرة الأولى الّتي رأيت بها هذا المتجبر قلقًا منّي، ولربما هي المرّة الأولى الّتي يتجرّأ أحد بالوقوف في وجهه. وليحفظ مصطفى بعضًا من كبريائه اخترع ضحكة صغيرة مصطنعة وقال كمحاولة للهروب:

-أنتم من يجب عليه الاعتذار، افسح لي الطّريق وستعتذرون غصبًا لذلك غدًا.

-ولم ليس الآن؟

سأله عمران باستخفاف، ثمّ نفخ شدقيه كإشارة تمّ الاتّفاق عليها مسبقًا لبدء الخطة، ثمّ ركض وقفز عاليًا في الهواء وضربه بجمع كفّه على وجهه، هنا تذكّرت كلّ ما قاله لي حين إعداد الخطّة (بعد الضّربة الأولى يختلّ توازن الخصم، عندها تأتي مهمّتك)، لهذا انقضضت عليه وتشبّثت برجليه من الخلف بقوّة، حتّى سقط فأدمت حصى الممرّ وجهه، للوهلة الأولى شعرت بالخوف وبضربات قلبي تكاد تتفلت من صدري.

رفس عمران رأسه بكعب رجله، سرت في جسدي حماسة منقطعة، وعادت بي الذّكرى للوراء، إلى عدد المرّات الّتي أهانني بها طوال تلك السّنوات بلا سبب، كيف كان يسخر منّي أمام الطلّاب، كيف كان يدسّ رأسي بوحل مجرور المنازل بعد انتهاء الدوام، وكيف وكيف..

أخذت أركله وأدهس يديه وساقيه بلا رحمة كما كان يفعل بي، لم ينتهي الأمر عند ذلك، أفلت عمران جرّار بنطاله وراح يبول على رأسه، حاولت فعل ذلك لكن لم أقوَ. تدافع الطلّاب على مدخل الممرّ ليعبروا مذهولين من هول ما يحدث، وقبل قدوم المدير لرؤية هذه الجلبة جرينا مبتعدين عن مسرح الجريمة فاندفع تيار عريض من الطلاب فوق جثّة مصطفى للعبور، لم يتركوا مفصلًا من مفاصل جسده لم تتهشم ولم تُداس.

ضحك عمران كثيرًا وهو يركض، كنت أضحك وفي داخلي رعشة من انتقام قد يكون شديدًا هذه المرة، وفي نفس الوقت كان لي رغبة في إعادة الكرّة. توقّفنا عن الرّكض وأخذنا نزفر التّعب من خياشيمنا، ثمّ ابتسم ورفع كفّه في الهواء وضربه بكفّي.

سألته بقلق:

-كيف سيكون ردّ فعله غدًا برأيك؟

-دع غدًا لغد، وعش نشوة انتصارك، سيحتاج لأسبوع كي يستعيد عافيته، هذا إن تعافى، ولذلك الحين سيحلّها ألف حلّال.

-لن أطمئنّ حتّى تزول تلك الغيمة.

أسقط يده على كتفي:

-إذًا ألقي اللّوم عليّ

-كيف ذلك؟

-قل لا دخل لك بما جرى

-وأتركك تنال العقوبة وحدك؟ لا يمكن

ابتسم:

-سأفكّر بحلّ إذًا، دعك من القلق، غدًا تعال للمدرسة، وسأكون قد سوّيت الأمر قبل الصّباح.

٤

في صباح اليوم التّالي وفي الطّريق للمدرسة الكلّ يشير بنظراته إلي ويتهامس، خيلت لي أشباح أفكار متوحّشة، تتقاذفني الظّنون هنا وهناك حول ردّ فعل الإدارة ومصطفى ورفقته، هل سيتمّ طردي من المدرسة؟ ستكون عقوبتي مضاعفة، سيعاقبني المدير بالفلقة أمام الطلّاب في باحة المدرسة، ماذا لو تغيّب عمران عن الدّوام وتركني أصارع وحدي اتّهاماتهم، وماذا سيفعل بي دربل ورفقته، يا إلهي سأصير حكاية الصّبية لسنوات.

على بُعد مسافة قليلة من مدخل المدرسة وأنا مشغول بخوفي لاح لي من بعيد، يا إلهي كم بتُّ أحبّك أيّها الولد المزركش، قفزت في الهواء ثمّ أسرعت فرحًا برؤية عمران وهو ينتظرني، لكنّه سرعان ما قذف كلامه بوجهي بعصبيّة وعشوائية:

-لِمَ تأخّرت؟ أتدري لو لم تأتي لكنت قطعت علاقتي بك ومرّغت أنفك بالتّراب.

أخذت أبرّر له ذلك ونحن نقطع المسافة القليلة لباحة المدرسة وذلك بشعور ممزوج ما بين الفرح والقلق:

-خفت أن تنكث بعهدك ولا تأتي وتتركني أواجهكم وحدي، لهذا تردّدت طوال الطّريق بالمجيء، لكنّني جئت.

-لا تقلق رتّبت كلّ شيء، ارفع رأسك فقط وتخايل في مشيك، نريد من الكلّ أن يعي أنّ ما جرى البارحة ليس سجية مارقة، لأنّنا لم ننته بعد.

استوقفته بعدم فهم:

-ماذا تقصد بـلم ننته بعد؟ ننتهي من ماذا؟

حصر طرفي كتفي الاثنتين براحة يديه ثمّ سألني كمن لم ينم ليلته وهو يفكّر بالأمر:

-من هو أضعف صبيّ من صبيان مصطفى وتابعيه؟

جالت عيناي باحة المدرسة بحثًا عن أحد من رفقة مصطفى، حسين يجلس مع رفاق له يختبرون بعضهم في حفظ الدّروس، وعلاء يحجل بساق واحدة بحجر مع رفيق آخر في مربّعات رسماها في الطّباشير، ومعتزّ أسند كتفه على عارضة السّلّة الإسمنتية ويسترق نظراته إلينا كمن يراقب تحرّكاتنا، في حين شغل فمه كبوز مرشة يوشوش عيسى في حديث أظنّه يخصّنا.

يا إلهي من منهم الأضعف؟ نعم إنّه هناك:

-طلال، ذاك الصّبيّ من يتّجه لدورات المياه أتراه؟

-ذاك القصير الّذي يلوي عنقه ويمشي مثل الكبش الأعمى؟

-نعم هو.

-ولمَ عنقه ملتوية هكذا؟

-مذ دخل المدرسة وهو يتطاول على قامته ليبلغ قامة رفاقه، ومنذ ذاك الحين وعنقه تؤلمه

-يا قلب أمّي الحنون كم سنؤذيه؟

ضحكت لكلماته الأخيرة، ثمّ تراءى لي بماذا يفكّر الآن، قلت:

-إنّه مسكين ولم يؤذني يومًا، لقد أصبح رفيقًا لمصطفى كي يتجنّب شرّه... إنّنا بهذه الطّريقة نقاتل بقذارة.

-هذا لمصلحته، ليس هناك قتال شريف، الكلّ يقاتل بقذارة، إن كنت توقّره فعلينا فعل ذلك لمساعدته، وبعدها أعدك أنّنا سنسيطر على هذه المدرسة، هيّا اتبعني ولا تثر شكوكًا.

استوقفني:

-لحظة...

اقترب منّي ثم فتح سحّاب حقيبتي وأخذ قلمًا:

-فلتعِ ما سأقوله، سأدخل خلفه بكلّ هدوء للمراحيض، وحين نخرج سأطلب منك إشارة البدء، إياك أن تتأخّر في لكمه على وجهه، لا تدع له مجالًا للتّفكير بالردّ، ثمّ اترك الباقي عليّ.

وافقت لأنّه لم يترك لي مجالًا للاعتراض أو الرّفض. تركني ثُمّ دخل خلفه في غرفة المراحيض وهي كتلة إسمنتية منفصلة عن بناء المدرسة، انتظرتُهما في الخارج بقلق، بماذا يفكّرُ هذا المجنون هذه المرّة؟

خرج طلال محاولًا إغلاق جرّار بنطاله بصعوبة، نظرت لعمران خلفه ولستُ بوارد ما يفكر به، نفخ شدقه الأيمن، لكن لم أعرف كيف أبدأ الأمر، فعاودت النّظر إليه فبانت عليه ملامح الغضب، فنفخ كلا شدقيه، وكي لا يُفسد ما خطط له سارع هو فدفعه من خلفِه بكعبِ قدمه نحوي فهوّم طلال مترنّحًا نحوي، أغمضت عينيّ فلكمته بكلّ قوّتي على وجهه، لكنّه لم يهتزّ فأمسكني من كتفي وكاد يرميني أرضًا لولا أنّ عمران غدره من الخلف فسقط أرضًا، أمطرناه من الضّرب، بعدها حملناه من يديه وقدميه وقمنا بمرجحته في الهواء وقذفناه كعصفور. وهو أمر يصرّ عمران على فعله في حال رغب بإيصال رسائله لغيره.

لم يساعد طلال أحد، المرة الأولى الّتي لا أرى أحدًا من رفاقه حوله، الكلّ ذاب كالملح، الوحيد الذي جاء هو أمين السرّ ومدرّسة الصفّ الأول، تمّ

اقتيادنا إلى غرفة الإدارة، وأمام طاولة المدير لُمت عمران على فعله، قال لي بتهكّم:

-لمَ خرقت القواعد؟

-لأنّها وضعت لتخرق... يا إلهي ماذا فعلت بنا يا أبله؟ الآن سيتذكّر المدير ما فعلناه البارحة، سيكون نهارنا أسود

-هذا إن استطاع المدير القدوم للمدرسة اليوم.

نظرت إليه، فبانت على وجهه ابتسامة خبيثة:

-وما أدراك أنه سيتغيّب؟

-ستعرف بعد قليل.

-طيّب، ماذا سنقول إن تمّ سؤالنا عن طلال، لمّا قمنا بضربه بلا سبب؟

-نحن لا نضرب أحدًا دون سببٍ، لقد قمنا بضربه لأنّه سرق قلمك.

-لكنك أخذته مني هل نسيت؟

-لا لم أنسَ، أنا لم آخذه منك، فقد سرقه طلال ورفض إعادته لك فقمت بضربه وأنا حاولت الفكاك بينكما، هل فهمت الآن؟

-أيّها المحتال.

رغم خبث ما قاله لكن أعجبني تدبيره للأمور، وبالفعل دخل أمين السّرّ ومعه طلال وهو يكفكف دموعه، استدار أمين السّرّ حول الطاولة وجلس على كرسي المدير وسألني:

-من منكم سيتكلّم ويخبرنا لما قمتم بضرب طلال؟

قام عمران بوكزي كي أتكلم، فاندفعت قائلًا:

-سيّدي سرق قلمي ولم يعده لي.

انفجر طلال من غلّه:

-أيّها الكاذب، إنّه يكذب يا معلّمي.

قاطعه عمران:

-رآك أحدهم وأنت تضعه في حقيبتك.

-من هو؟

-ليس مهمّا معرفته المهم أنه في حقيبتك الآن.

أمين السّرّ:

-افتح الحقيبة يا طلال.

قام بفتحها فغلّفني الذّهول

أقسم طلال:

-أقسم أنّي لم أفعلها

عمران:

-ولِمَ سنتّهمك، هل حدث يومٌ بيننا أيّ خلاف أو أسأت لنا، إنك ولد طيب وأنت تعلم كم نحبّك لكن ذلك لا يعني أن تسرقنا.

ثمّ وجه عمران حديثه لي:

-إنّه صديقنا سامحه هذه المرة كي لا يتمّ طرده من المدرسة.

أجبت بكرم زائف :

-حسنًا، أنا... أسامحك، و... و قلمي هذا هديّة لك.

كان أمين السّرّ يراقب ما يجري، وكأنّه أعجبه لطفنا فطلب منّا مصافحة بعضنا البعض، وبالفعل قمنا بمصافحة بعضنا واعتذر طلال على جريمة لم تكن له، وقبل أن نغادر الإدارة، سأل عمران أمين السرّ:

-سيّدي أمين السّرّ هل سيتأخّر السّيّد المدير عن الدّوام اليوم، كنت أريد أن أقدّم له شكايتي من مصطفى لقد سبّ أبي وهجم لضربي البارحة لكن سبحان الله فركت قدماه بالحصى فسقط أرضًا.

- المدير لن يأتي اليوم ادعوا له بالشفاء لقد لدغه عقرب سام هذا الصباح، كما أن مصطفى لن يأتي بعد اليوم للمدرسة لقد قام والده قبل قليل بزيارة المدرسة وقدّم طلب انتقال له لمدرسة أخرى.

لم أنبس ببنت حرف حين سمعت ذلك، يا إلهي، كيف لكلّ هذه الانتصارات أن تتساقط عليّ دفعة واحدة، قلبي الغض لا يحتمل ذلك. أغلق عمران الباب خلفه ببطء وعلى سيماه منتهى الحبور، وضعت يديّ على فمي كي لا أصرخ فرِحًا، مذهولًا.

يصعب تقليد عمران ما لم يكن عمران.

أردت الإمساك به لكنّه نطّ مسرعًا، تبعته في الباحة كي أمسك به، كان يركض يمنة ويسرة في خطّ متعرّج كي لا أمسكه:

-توقّف يا شيطان، توقّف لن أفلتك يا محتال

حين تهالك قلبانا من الركض، هوّم رأسه ويداه على خصره وهو يلهث:

-ها، الآن لن يتجرّأ أحدهم ليقول لك ما أحلى الكُحل في عينك، هذه المدرسة ملكنا، إنها ملكنا.

-أنت على عيني يا ولد.

تبسّم لقولي:

-على الرّأس والعين.

ثمّ احتضنته بحبّ، أخي الّذي لم تلده أمّي.

٥

اختفى أثر مصطفى بعد تلك الحادثة فأصبح خبرًا بعد عين، حتّى أنّي لم أعد أراه إلا في بعض المناسبات الاجتماعية الّتي تقيمها القرية كالأعراس أو المآتم، وحين أقابله يفتعل أنّه لا يراني فينسلّ كالخيط الرّفيع ويتوارى عن ناظري.

أعرف هذا الشّعور جيّدًا، التّظاهر بعدم الرؤية والتّغابي، إنّه شعور مؤلم، منحه لي مصطفى سنوات عدّة قبل مجيء عمران، أما الآن فأنا أرى كلّ شيء بوضوح.

أمّا عن المدير فقد تغيّب عن المدرسة عدة أيام، وهي مدّة كفيلة لتدفع كلّ من في القرية لينتبه أن العارض كبير، فهو لم يعتد ذلك، منذ أنه قبل عشرين عاما لم يتغيّب إلّا في ليلة زواجه وحين ولدت بقرته لهذا قرّرنا زيارته والاطمئنان عليه، فلدى رفيقي عمران شهامة منقطعة اكتشفت ذلك اليوم، حين رفض أن نزوره فارغي الأيدي، لذا تكفّل بالأمر، غاب بضعة ساعات ثمّ عاد مسرعًا وفي يده ديكٌ كبيرٌ.

طلب منّي أن أجعل أختي تُعنى بطهيه حتّى ننقله لمنزل المدير، كانت حينها أختي في غرفتها تحتضن مسجّلها المفضّل وقد تربّعت فوق كرسيّها تفكر

بطريقة لإصلاحه، فهو مشغّل موسيقي قديم ومستعمل لأشرطة الكاسيت أذكره جيّدًا كما لو أني أراه الآن، لونه أسود من طراز شركة miraco نوع M70M2-RX، اشتراه لها والدي حين نجاحها في الثّانوية العامة بمعدل ممتاز، وبفضله أصبحت تعرف كيف تصلح الأعطال الخفيفة في التّلفاز والغسّالة، فلا قدرة لها على العيش دونه.

وبينما هي على انشغالها بمواضع أسلاك المشّغل بحثًا عن سبب علك مفتاح الصوت للشّريط المغناطيسي للكاسيت، طلبت منها المساعدة.

أعجبتها تلك المبادرة كما كلّ أفراد عائلتي، لكن من أكبَر على فعل عمران وبالغ في ذلك هو أختي أسيلة، تركت مسجّلها وسارعت نحوه واحتضنته، وأبلغته بكلام مزوّق وجميل عن عظيم صنيعه، ما جعل خدّيه الأسمرين يتشرّبا بالحمرة خجلًا، ما أثار فيّ الغيرة.

بالمناسبة اسمها عُسيلة، لكنّها قامت باستبداله لأنّها تعتقد أنّه قديم ولا يلائم النمط السيكوباتي العام أثناء ذهابها للجامعة، لهذا أعجبتها فكرة استبدال العين بألف مضمومة، وذلك حين قامت مدرّسة اللغة الانكليزية في جامعتها بقراءة اسمها ضمن قوائم الحضور aousaila، ومنذ ذاك الحين وهي تقضم العين وتستريح بالألف. ولها في هذا عذر جميل أمام أبي حين تقنعه بقولها "من استبدل حرفًا بآخر ما جلب العار لنفسه ولا أهله".

كان والدي لا يعارض أيّ شيء تفعله أختي، على عكس والدتي الّتي تتهمه دومًا بإفسادها، لهذا كانت علاقتهما دائمة التشنُّج، أقصد علاقة أبي بأمّي. كان والدي لطيفًا جدًّا وبسيطًا وفي شبابه لا يفتأ يستمع لنصائح والده. فقد علّمه جدّي مذ كان طفلًا ألّا يحزن على شيء يكسره، فلا ينكسر سوى الشّرّ، ومذ بَلَغ وهو يكسر قلب أمّي، لكن لا أدري بصدق من كان يكسر قلب الآخر طوال تلك الأيام الرّتيبة. لم تكن علاقته بأمّي جيّدة كفاية، لذا أعتقد أنّهما السّبب وراء هذا النّزق العائلي المستمرّ، فهو يشتكي منها على الدّوام أمام رفاقه، وهي لا تبخل بذمّه أمام نسوة الحيّ، ورغم مرور تلك السّنين الطّويلة على زواجهما إلا أنهما لم يعتادا الأمر كأيّ زوجين تزوجا زواجًا ريفيًا تقليديًا.

يقال أنّ سقراط اكتسب الحكمة من وراء زوجة كأمّي، إذ كان يجول القرى والأحياء طوال النهار يبيع أفكاره لتلاميذه هربًا من زوجة مملة ونكدة، وأستطيع القول أن أبي عانى من عقدة سقراط هذه طويلًا. فأنا لست ساذجًا لأعي تلك العقد في حياته، فالتّفاصيل الصّغيرة قد تخبرنا عن أمور معقّدة يصعب فهمها، ففي صغري مثلًا رافقت والدي الحكيم ذات مرة لدمشق، لمراجعة الطبيب الّذي يتابع حالتي، وفي غرفة الانتظار كانت مساعدة الطبيب فتاة فاتنة جدًّا، لكأنّني أراها الآن، وهي ترتدي تنّورة قصيرة وتلفّ ساقًا فوق ساق. إنّها لا تشبه النّسوة هنا في قريتي، هنا يرتدين لباسًا سميكًا وطويلًا على الدوام، و لهذا السّبب حين يغضب والدي من أمّي

يصفها (يا خزانة الملابس). لكن في العاصمة الأمر مختلف، فمن الممكن أن ترى أمورًا لا يشاهدها الفلّاحون إلّا على التّلفاز. حتّى على التلفاز لم يكن الهوائي في الجنوب في تلك الفترة يلتقط سوى قناة واحدة وهي القناة الرسمية للمملكة الأردنية والتي لا تجيد سوى عرض المسلسلات البدوية التي تجد مبتغاها لدى والدي.

كانت مساعدة الطبيب خالية من العيوب، فنظر إليّ والدي وأنا أراقبها ثم وشوشني وهو يبتسم:

-هل أزوّجها لك؟

أغرقت وجهي في صدره خجلًا:

-لا تنخدع في هذا البهرج، حين تكبر ستعلم كم هنّ جميلات وهنّ نائمات فقط.

كبرت بالفعل لكن ما علمته شيء آخر، علمت فقط كم كانت علاقته بأمّي سيّئة لهذا الحدّ حتّى حوّلته لحكيم ينظّر بيأس عن المرأة، وكيف عافت روحه كلّ هذا الجمال، أقول ذلك لأنّ كلّ الرّجال في عيادة الطّبيب كانوا يتفرّسون جسدها بنهم إلا هو، ولأنّك أيضًا نادرًا ما تجد عربيًا لا يحبّ النساء، وإن حصل فعليك أن تعلم أن في الأمر خطأ.

لربما الأمر الوحيد الّذي لم يورثه لي والدي هو كرهه للنساء. أمّي تجدني أميل إلى خالي وراثيًا، وتوقّعتْ حين أكبر أني سأتزوّج مثله ثلاثة نسوة.

يبدو أن عمران يشبهني في هذه الميزة، أقصد في انجذابه للنّساء، فاليوم كان بين الفينة والأخرى يراقب أختي أسيلة ويسترق النّظر إليها بعينين زائغتين وهي تعدّ الطّعام وتقلي فخذي الدّيك بالزيت مرتدية تنّورتها المقلّمة وشالها الّذي تراخى عن قصّة رأسها عن قصد فكانت تبدو في خصرها الدّقيق في الرّابعة عشرة لا في العشرين من العمر. وحين انتهت لم يكن في نيّته مغادرة المنزل لولا أن جررته للخارج.

في منزل المدير استقبلتنا زوجته عن طيب خاطر، كان المدير ممدّدًا في غرفة الضيافة المرتّبة بشكل ينمّ عن ذوق رفيع، ينام وفوقه شرشف رقيق وقد برزت طرف ساقه المتورّمة والملفوفة بقطع من الشّاش.

كان الوقت مساءً قبل صلاة العشاء، وقد ذهب أبي معنا في تلك الزيارة، تمّ استقبالنا بحفاوة، وجه المدير الأصفر الذّابل وحيله الفاتر لم يسمحا له بالوقوف لاستقبالنا، لكنه قبّلنا بحبّ، وأثمن على تلك المبادرة الطيّبة، قال له أبي:

-أصرّ هذان البطلان إلا أن يطمئنّوا على صحّتك، ولقد اشتهيا لك هذا العشاء وقد صنعاه من مالهما الخاص، إنهما طالبان محبّان.

أصبت بالنشوة لهذا الإطراء، تبسّم المدير بتعب في وجهينا، وشكر هذا اللّطف وأثنى على حسن التربية. أنهينا العشاء سويًا، وكان طعامًا لذيذًا خرج من يدي أختي. وبعد حديث إثر حديث قصّ المدير علينا بتعب كيف وقع له الحادث:

-إنّها المرة الأولى في حياتي التي يلدغني بها عقرب، كان الملعون أسودًا ضخمًا وسامًا جدًّا. في الصّباح كعادتي خرجت لأرتدي حذائي لأتّجه للمدرسة لم أنتبه أن هذا الملعون عشعش في داخله، لسعني بضعة لسعات لحين خلعته، حذائي كان ضيقًا، ما إن خلعته حتى أفرغ كلّ سمومه في قدمي، حين نفضت نعليّ خرج منهما قرابة ثماني عقارب، انظر يا صديقي إنّها متورّمة منذ عدّة أيّام.

ثم سحب قدمه من تحت الغطاء فبانت منتفخة مثل كيس لبن، نظر إليها عمران ثم أطلق صفيرًا من فمه:

-أوه.هـ.هـ

قال المدير:

-إنَّها الآن بخير ليتك رأيتها قبل يومين لقلت أني لن أنجو، الحمد لله على كلّ حال. لكأنني يا صديقي نذرت نذرًا ولم أنفّذه؟

ردّ أبي تكهنه في ثقة:

-حين تقوم بالسلامة عليك أن تفجّر دمًا وتوزعه على الفقراء كرمى لله على بقائك حيًّا

-معك حقّ فأنا لدي حساسية مفرطة من اللّسعات، ذات مرة لسعني زنبور، تم إدخالي العناية المشدّدة بسببه. قال لي الطّبيب أن لسعة العقرب هذه أدّت لتسارع في ضربات قلبي، وأنت تعلم أن قلبي تعب بسبب التّدخين.

نظرت لعمران الّذي اتكأ على وسادة بجانبي وقد هصر كتفه على كتفي، كان مرتاح الضّمير ولم يتأثّر لما سمعه من حديث، وبوشوشة سألته:

-لم تقل لي أنّك كدت تقتله بعقرب؟

أجابني بصوت خافت وكأنّه انتزع ضميره ورماه خارج المنزل، ودون أن يحوّل ناظريه عن ساق المدير قال بسماجة:

-لم تسألني حتى أجبك.

-ولم تخبرني من أين جئت بثمن الدّيك؟

-إنه من هذا البخيل الممدّد أمامك صاحب الأرجل المنتفخة والّذي سيموت ولم يتذوّق طعم الدّجاج.

رغم رأفتي بحال هذا الرجل المريض، وتأثّري بكلماته وصحّته، إلّا أن ضحكة صغيرة اختنقت في حلقومي، حاولت ابتلاعها لكنّني لم أقو على ذلك. رمقني أبي بعصبيّة، طأطأت رأسي وأنا أدفن ضحكة لأجمل أيامي.

٦

مضت أيام وسنوات، كان الوادي هو جنّتنا الّتي لا معيار للخطيئة فيها، مكان رائع لطفلين، فماذا يبغي صبيّان في السّنوات الاثني عشرة الأولى من عمرهما أكثر من تسلّق الأشجار وتخريب أعشاش الغربان وتحمّل لسعات النحل للحصول على لحسة عسل مسروقة، ماذا يبغي راغب في مغامرة أكثر من ذلك.

خلال تلك السّنوات تعلّمت من عمران في ذاك الوادي عادات جمّة، كأن يقطع الطّريق على صبية البدو ويسرق منهم بعض ثمار التفّاح والخوخ، وحين أقول له أنّ ذلك لا يجوز وغير مقبول، ينهش من ثماره ويردّ على الفور (السّارق من السّارق كالوارث عن أبيه)، لديه لكلّ سؤال جواب، ولكلّ فعل تبرير، ربما هذا ما أوقعنا في الكثير من المشاكل طوال سني حياتنا.

في هذا المكان تمكنّا من صناعة أول فخّ لاصطياد الطّيور عن طريق صبيّ وجدناه يقتنص عصافير الدوري بفخاخه بمهارة في الوادي، كانت الطريقة سهلة، أو لكأنها بدت كذلك في البداية، نقوم بطيّ سلك معدني بشكل نصف دائرة ولها مقبض، ومن ثمّ نفعل نفس الفعل في شريط آخر لنصنع نصف دائرة لكن بلا مقبض، نربط النّصفين سويًّا بزنبرك بقواعدهما على

اليمين واليسار، نوصل في طرف المقبض السّفلي سلكا معدنيا مستقيما بطول نصف الفخّ، وهذا يسمى لسان الفخ، ثم نقوم بدقّ رأس هذا اللسان وحفه من الوسط ليأخذ شكل لسان الأفعى بشفرتين، نربط خيطًا رفيعًا عند رأس المقبض بين الزنبركين حيث يلتقي برأس اللّسان ونخلّل فيه خرزتي نحيل صغيرتان، من ثمّ نقوم بنصبه بعد أن نربط جندب شاب ونبتر طرفيه الطويلين والقاسيين ونبقيه كطعم في انتظار مصيره.

منذ ذاك الحين ونحن ننصب الفخاخ لاصطياد عصافير الدوري، لا أذكر أننا تمكنا من اصطياد عصفور واحد، لربما المشكلة هي في الفخ، فنحن بطريقتنا تلك نقدّم وجبة سهلة لذاك العصفور، لهذا وبعد يأس فضّلنا استرجاع مواهبنا في تسلّق الأشجار كي نغزو أعشاش الطيور وأسر فراخها على انتظار هذا الفخّ بالقبض على عصفور ما.

كنّا نقوم بشيّ تلك الفراخ على الحطب والتهامها، أذكر أنّنا قمنا ذات مرة بشواء فرخ صغير وهو حي، قمنا بربطه بخيط ورميناه في النار، بقي المسكين يتحاشى اللّهب إلى أن استسلمت روحه للنار. كما كانت لعبتنا المفضّلة هي فتح صناديق سرطانات الماء العذب وقتلها بلا سبب، كنّا ولدين فضيعين في صغرنا.

يا إلهي فلتسامح روحينا على جاهليّتنا، إنّها أفعال أندم لصنيعها.

الشّيء الوحيد الّذي كنت أفاخر به عمران أنّي من علّمه السباحة في البرك الموحلة، لقد عذّبني أيّما عذاب حتّى استطاع العوم بمفرده. كما أذكر أننا كنا نبتكر طرقًا علمية لموت الضّفادع وسمك أبو شنب الصغير بإرغامها على تناول حبيبات السّماد العضوي عبر دسّها في فمها، من ثم نراقب بساديّة كيف تتقطّع معدتها وكيف تدسّ رأسها في عمق الطين من الوجع لتنتهي طافية على سطح البركة.

ذات مرّة قمنا بإطعام أحد الصبية بضعة حبات من ذاك السّماد، وهو صبي يصغرنا بأعوام، حين انتهى من ازدرادها أخبرناه أن هذه الضفادع الطافية على سطح البركة قد نفقت لأنّها تناولت مثله تلك الحبيبات، بكى وناح كثيرًا، وطلب منّا إنقاذه من الموت. أخبره عمران ضرورة التغوّط، الطريقة الوحيدة لينجو، وحين فعل ذلك طالبه بأن يدسّ إصبعه في مؤخّرته كي يخرج تلك الحبيبات.

على العشب الأخضر انقلب كلانا على ظهره من الضّحك، في حين كرّر ذاك الصبيّ صراخه وبكى حتّى جفّ دمعه، طلبت منه أن يضع إصبعه في فمه ليتقيّأ وبالفعل وبلا تفكير وضع إصبعه المتّسخة بفمه، ألقى نظرة أخيرة على البركة الممتلئة بالضّفادع المعدمة وراح يشهق وينوح في طريق ذهابه لمنزله.

ما هي دقائق حتى عاد ذاك الصبيّ وقد جلب أخاه الكبير معه، رأيته من بعيد يشير بإصبعه إلينا، وحين التفتُّ لأخبر عمران ذلك كان قد أطلق ساقيه السمراوين للريح وتركني. التفت إليّ وصاح وهو يركض:

-اهرب يا غبيّ، إن أمسكك هذا الولد سيطعمك الضفادع النافقة.

تبعته واختبأنا في قلب الوادي أعلى شجرة كينا ضخمة، هيّأنا أغصانها في وقت سابق لتكون مخبأنا السّرّي لتلك الطوارئ، وهي شجرة وارفة نمت قرب شلّال ماء عذب كوّن تحته بركة صغيرة، لتخلق مكانًا جميلًا للتنزّه فيؤمّه الصبية والعشاق على الدّوام.

كنا نبصق على الصبية من فوقها، ونطلق رذاذ بولنا على لباسهم حين يقوموا بتعليقه على أحد أغصان تلك الشجرة ليدخلوا البركة للسّباحة، وأحيانا كثيرة كنا نقوم بسرقتها.

حدث في يوم ما أن كنا نجاهد الملل في ذاك المخبأ، هناك حين اقترب شاب وفتاة يافعان وجلسا خلسة يتلفتان حولهما في جوف صخرة كبيرة، تدلّى كلانا بهدوء على غصن كبير لنراقب كيف أجلسها على فخذيه وأخذا يقبّلان بعضهما بنهم، كان الشاب في السّادسة عشرة، أي يكبرنا بأربع سنوات، في حين تكوّر ثدياها الكاعبان كحبّتي خوخ متوسّطة، وهما مناسبتان لفتاة في الرّابعة عشرة، نظر إليّ عمران ثم ابتسم ابتسامة ماكرة، خيّل لي بما يفكّر به، فقد حفظت أفكاره الشرّيرة صمًا.

انزلقنا عن أغصان الشجرة كالقرود، وتسلّلنا ببطء نحوهما كالخفافيش، ثم خرجنا لهما بكلّ هدوء، صرخ عمران فأفزعهما، فجفلت لصوته أيضًا عصافير وغربان:

-تارتتتاه، يا للعيب، يا للعار، حازم الحلو يقبّل داليا الحلوة، إنه عار بالفعل.

أخذت الرجفة قلبي العاشقين، جمد لسانهما، في حين كاد قلب داليا يتوقف، حبات العرق الّتي بللت وجه حازم كفيلة لتخبرنا في أي مصيبة وقع هذا المسكين.

في ارتباك برّر حازم:

-لقد، لقد أفزعتمانا أيها الغبيان، كنت أخرج من إحدى عينيها قذاة صغيرة، ها، ألا يدخل في عينيكما بعض التّراب والحشرات فتخرجاه؟

حكّ عمران طرف حنكه :

-فعلًا قد يحدث ذلك، لقد ظننت بكما سوءًا، أقدّم اعتذاري الشّديد لكما.

ارتاحت أسارير حازم وداليا لبادئة عمران تلك، لكنّه عاود وأكمل باستفزاز وببرود:

- لقد أثّر صنيعكما فيّ لدرجة أن عينيّ دمعتا، لذا سأذهب لوالديكما وأخبرهما كم أنت نبيل، سأقول لهما أني وبينما أسير في الوادي، وفي مكان يبعد عن البلدة عشرات الكيلومترات وفي مكان مقطوع، وجدت داليا اللّطيفة ابنة المختار تجلس على فخذي حازم الشّهم وكان هذا الشابّ يخرج من عينها بعض التراب، كما كانت شفتاه تخرجان من فمها بعض الحشرات، سيفخران بكما أليس كذلك؟

ثارت ثورة حازم واقترب نحوه أمسكه من مقدّمة قميصه:

-أيّ كلام تقوله، إن تفوهت بحرف ستندم فعلًا

ببرود ردّ عمران :

-وماذا ستفعل؟ دعني أخمّن، ستجلسني على فخذيك وتخرج من عينيّ القذارة مثلًا؟ أم ستقبّلني؟

مدّ عمران شدقيه نحوه ليقبّله، استعاذ حازم من الشّيطان، أفلته ثم أدرك أنه وقع تحت رحمة صبيّ لا يأتي بالتّهديد:

-ماذا تريد؟

-بدأت تفكّر جيّدًا.

بدأ عمران يفكّر بماذا يبتزّه:

-حسنًا أترى حذائي، إنه قديم جدًا .. انظر.

رفع حذاءه في وجه حازم فبرزت أصابع قدميه المتّسخة كأسنان مشرّد جائع، ثم أكمل طلبه:

-أريد حذاءً، لا أظنّك ستقبل ألا تشتري لي واحدًا.

ردّ حازم وهو يخنق غيضه:

-حسنًا، لك هذا، لكن إن سمعت حرفًا في البلدة عمّا جرى لن تلوم إلّا نفسك.

اقتربت داليا نحونا تتوسّلنا والدّموع تملأ وجهها:

-أرجوكما ألا تخبرا أحدًا، أرجوك.

نظر إليها عمران بإعجاب كبير، وأخذ يراقب شفتيها المتورّدتين كحبّتي توت لم تنضجا بعد، فعرفت أن نوايا خبيثة قد تراوده في لحظتها، لكنّه أجابها على خلاف ما توقّعت:

-لكِ ذلك يا حلوة، لكن نقّذا مطالبنا

ردّت بلهفة:

-سنفعل ما تطلب.

حين رأيتُ أني قد أخرج خالي الوفاض من اتفاقيتهما اقتربت من عمران ووشوشته:

-أيّها الخائن، ألا ترى حذائي المهترئ، أريد واحدًا وإلا سأفضحكم جميعًا

قال عمران لحازم بتنمّر:

-إن صديقي يريد واحدًا أيضًا، نريدهما غدًا هنا في هذا المكان وفي نفس التّوقيت

ثمّ استدار نحوي بكبرياء:

-هل تريد شيئًا آخر أيّها الصّديق؟

رحت أفكّر:

-نريد سنّارتي صيد وعلبتي كبريت.

ردد عمران من جديد:

- نريد سنارتي صيد وعلبتي كبريت ودجاجة مشوية و ..

حازم مقاطعًا:

-لا تبتزّاني، لن أحضر شيئا ولتفعلا ما تريدان.

التصقت به داليا تتوسّله ألا يرفض، فرأف لحالها وهوّم رأسه دليل عجزه:

- لكما ما طلبتم لكن لا شيء غيره.

استدار عمران وسرنا بخيلاء مبتعدين عنهما، وعلى مسافة بعيدة صرخ نحوهما وهما يستجمعان رأسيهما من هول الصّدمة:

-ليذهب كل منكما لمنزله فورًا، وإياكم أن أرى أحدا منكما سويًا.. واحد .. اثنان .. اثنان ونصف .. حين أبلغ الثلاثة وأجدكما مجتمعين سألغي اتفاقيتي... ثلاثة إلّا ربع ..

ضحكنا بأصوات مرتفعة لنكمل غيضهما، ثم توقّف عمران عن الضّحك وقال برغبة:

-لكم كانت شفتاها مثيرتان يا هذا، أنا ضعيف أمام الجميلات.

ثم مطّ شدقاه نحوي يقلّد قبلتهما.

عند الظهيرة في اليوم التّالي، اتجهنا لنفس المكان، أي قبل الموعد بساعات، ما إن جلسنا حتى لاح قميص حازم البنّي المخطّط من بعيد، ما يعني أنّه يعيش أيامًا عصيبة معنا حتى جاء قبل الموعد أيضًا، رمى أكياسه أمامنا بعصبية، وراح يتوعّدنا في المستقبل، وبينما هو يشتم ويؤكّد علينا بعدم البوح بسره، انشغلنا في الأكياس نفتشها بدهشة بلا أي مبالاة لتأكيداته. أخرج عمران زوجي أحذية صُنعا من البلاستيك، كانا خفيفان وجميلان،

صحيح أنهما ضيّقان قليلًا ويحزّان القدم، لكنّهما أفضل من حذاءينا السّابقين، سألني عمران وهو يقيسه بفرح:

-أليس جيدًا؟

- إنه رائع

شهق عمران حين أخرج سنارتي الصيد، والأهم كيس آخر تفوح منه رائحة الدّجاج المشوي، سألت حازم وهو واقف يراقبنا بغيض:

-أين المايونيز، فروج بلا مايونيز كيف ذلك؟

نظر إليّ عمران ثمّ أكد على استفساراتي بعجرفة وبتحاذق وفمه قد تلطّخ بالطعام:

-هل فعلًا ليس هناك مانونيز، كيف سأبتلع اللّقمة إذًا، انظر يا صديقي، أين الكاسات لشرب المانونيز؟

تداركته واقتربت منه:

-اسمه مايونيز وهو مخفوق من البيض يؤكل مع الفروج المشوي وليس شرابًا.

ضحك بصفراوية:

-لِمَ لم تخبرني قبل أن أتحدث؟

حين رأى ذلك حازم غادرنا بعد يأس، وأعلم أنه في سرّه ربط مؤخرات اسمينا بجميع الحيوانات في هذا العالم.

لوحدنا أصبحنا، صاح عمران:

- الكثير من الخيرات، يا لا حلاوة الإنسانية.

كان حازم فأل خير علينا، من خلاله أمضينا أيامًا جميلة، تمنّيت لو أننا نستطيع أن نجعله يقبّل داليا مرة أخرى. فلم يمضِ يوم ورآنا به إلا وتكدّر وجه ذاك المسكين لرؤيتنا، أنا أعرفه جيّدًا، الكل في القرية يعرفه كشاب رومنسي وحسّاس جدًا ومع ذلك كنّا نخرج له من كلّ جانب ومن كلّ باب وشارع وحارة ووادي، حتّى أنه أصبح حين يرانا يغيّر مسار طريقه.

كما أنه في الأيام الأخيرة اعتزل البلدة ومكث في منزله، لهذا كنا نجلس على مدخل منزله، وما إن يخرج حتّى أجلس على فخذي عمران من ثمّ نقوم بتقبيل بعضنا البعض.

ذات مرة وصلت الأمور معه لمنتهاها، فقد رفض طلبنا بشراء درّاجة هوائية لنا، حينها حلف لنا أنّه لا يملك المال، بل قام بطردنا، وقال إنه سيقوم بربطنا في حال عدنا، وأنه لا يبالي إن بحنا بسرّه.

صادف ذلك أن قدم قريب حازم من السّعودية، بعد غياب دام لعدة سنوات، في تلك الليلة اجتمع جميع شبّان البلدة ورجالها لتهنئة قريبه لعودته سالمًا. وبينما الجميع مشغول بأحاديث الضّيف الجديد دخلنا المنزل وطلبنا منه الإذن، فطلب منّا الشاب ووالدّه الدخول، لكن عمران وضع يده على عيني، وقال أمام الجميع:

-نعتذر عن المقاطعة لكننا نريد السيد حازم، فقد قيل لنا أنه ماهر في إخراج الأوساخ من العين، ولقد دخلت في عين رفيقي نشارة خشب.

خرج حازم مسرعًا وغضبان، أمسكنا من أذنينا وسحبنا لخارج المنزل، كان جادًّا وغير مبالٍ، وهو ما اتّضح من ردّة فعله حينها، لا أعتقد أنّ مكانًا في جسدينا لم يتعرض للضّرب، للشدّ، للقرص، للعضّ ولكل أنواع الانتقام في تلك الليلة.

التجأنا للفراش لعدّة أيام، وحين سألني والدي عن الأمر قلت له أننا سقطنا من أعلى الشجرة أنا وعمران، وهو ما اتّفقنا عليه سويًّا. ومنذ ذاك الحين ونحن نبدّل طريقنا في حال رأينا حازم فيه.

الفصل الثاني

في الرّقيم

بعد مرور ٩ سنوات

٧

عش الترك

يناير 2013 – بعد الحرب بعامين

يستطيع الأعلى دوما الاعتماد فيه على الأدنى، لكنه بلد لا يستطيع فيه الأدنى أن يثق بالأعلى، لربّما لهذا السّبب كانت حربًا مختلفة خلقت وجوهًا وأرواحًا مختلفة بائسة ومكرّرة.

كل شيء في المكان يسري حولي ببطء شديد، رغيل الحصى وحطام الأبنية تحت قدميّ يضرب أذنيّ بقسوة، تمرّ بي على الطريق أبنية متداعية وأخرى آيلة للسّقوط كقطع من الجبن السويسري المجوّف وكشاهد على هول ما فعله ويفعله الإنسان ذئب أخيه الإنسان في هذا المكان. يد ابن عمي الثقيلة والخشنة على كتفي تحاول شحذ عزيمتي برفق، لحيته الطويلة الكثّة تثير في نفسي نوازع القلق، شعره الطويل المتسلل تحت منديله المعقود على رأسه،

عود سواك في جيب قميصه الشّرعي الطّويل، بنطاله القصير، جعبته المثقلة بثلاث مخازن للرّصاص، بندقيّته الممسك بها بقبضته الأخرى كالقابض على الجمر، كلّ ذلك يثير في رأسي المأفون ذاك الصّوت (كيف وصلنا إلى ما نحن عليه. هل؟ أنا واثق أني قادر على فعلها). وجه أمّي الحاد والغاضب على شمالي والبارز من خمارها الأسود كأنه يقول لي (أنت مجبور على فعلها). أشدد من عزيمتي يا الله، اختر لي طريقا صالحًا.

انفرج الطّريق عن ساحة مدمّرة حول دوّار عاصم، عرّت الشّمس السّاقطة بحزم من بين الغيوم كمصباح مركبة فضائية شجرة نخيل محترقة وأخرى مكسورة من المنتصف ويابسة، ركام هنا وحطام هناك، سواتر ترابية، أعلام ورايات سوداء، رأس أبو تمام لم يسلم هو الآخر فقد جزّ وتم قطعه وغرزت راية إسلامية في مكان عنقه، وفوق بيت شعر له خطّته البلدية قبل سنوات كتب أحدهم في الطلاء (خلافة على منهاج النبوة)، عشرات من المدنيين والأطفال والنسوة تحلّقوا حول المكان في نصف دائرة، بعضهم واقف وآخرون لم يقووا على الوقوف فجلسوا على كسر من الطوب وعلى الأرض.

أمسكت أمي يدي، ثم قالت بقسوة لم أعهدها (لا تجبن، خذ بثأرك). اقترب منّي ابن عمّي ثم وشوشني (يقولون لك افعلها سريعًا، هناك نداءات عبر القبضات أنّ الطيران الحربي للنظام خرج من مطار الثعلة باتّجاه الجنوب).

نظرت إلى غريمي يجثو على ركبتيه على بطّانيّة وقد منحني ظهره ينتظر القصاص، معقود اليدين للوراء مذلول الرّأس، لم أتصوّر أن أراه بهذا الحال يومًا. اقتربت خلفه بساقين راجفتين، سحبت مسدسي من حزام بنطالي، لقمته وصوّبته إلى عقب رأسه. كيف أفعلها.

كيف أفعلها؟

ليقل لي أحدكم كيف أفعلها؟

كيف أقتل عمران؟

الكلّ ينظر إليّ، عيون شاخصة حزينة ومنكسرة وأخرى حاقدة تنتظر الثّأر لتطفئ نارها، وكثيرة هي العيون الحائرة بين هذا وذاك، آه ما الذي يجري، أهؤلاء الذين كانوا يرأفون لدهس حشرة أو كسرة خبز يابسة ويتسارعون لقلب الحذاء المقلوب، هم أنفسهم من بات القتل بالنسبة لهم كفرض يومي من فروض الحرب؟

يداي ترتجفان مجدّدًا، لساني كتلة لحم مشلولة، تناغي لمسمعي المضطرب قلب أمّ يئنّ، إنها العمّة نورا والدة عمران، تنوح بقلب متفحّم، قلب تلوّع من البكاء مثل شجرة النّخيل المحترقة فوقها، ركضت العمة نحو أمّي، انهالت تقبّل ساق أمّي بداعي الرّأفة، وجه أمّي الذي لم أره على مثل هذا الحال منذ ولدت لم يحنو أو يرأف. حرّرت أمي رجلها من قبضة تلك الأم المحزونة بقسوة، لكنّها استمرّت وصاحت بتوسّل:

-الله بالعين لم يُرى لكن بالعقل عرفناه، حكّموا عقولكم، كيف لابني أن يكون مخبرًا للحكومة، كيف له أن يقوم بالوشاية على زوجك، نحن عائلة واحدة، كنتِ أمًّا لعمران أكثر منّي. إنهم إخوة، عاشوا سويا في بيتكم، تناولوا طعامهم على مائدتكم، نحن لا نعضّ اليد التي آوتنا واستقبلتنا حين حاربنا الجميع من أهل القرية، أنا لا أنسى صنيعكم الطيّب بحقنا، ارأفوا لحال ابني، إنه بريء أي والله، دعوه يحلف على القرآن إنه لا يكذب...

حاولت العمّة نورا أن تزحف نحوي، لكن عناصر الهيئة الشّرعية شكّلوا حاجزًا بيننا، فصاحت لتبلّغني توسّلاتها المرّة.

-أنتم رفاق منذ الطفولة، كيف ستقتله وهو رفيقك ها، ألا تذكر في سنة الثلج الكبيرة نمت في حضني أنت وعمران سويًا؟، كلاكما ولداي، أنت الوحيد الذي يعرف أنّه بريء، لا تضع دمًا بريئًا في عنقك يا ولدي، لا تقابل الله بدم أخيك المظلوم أرجوك...

اقترب من المكان رجل ضخم، بدين، ملتح، بكرش كبير دفع جعبته فوق صدره، إنّه مليء بالتفاصيل التي يطول ذكرها، أشار بيده في الهواء ببطء أي أن يدعوها لتصمت، ساك أسنانه بعود سواك، ثم قال لي وهو يتلفت للسّماء (نفّذ حكم الله ودعنا نغادر).

التفتُّ إلى أمي وقد غرق صدري بغصّة، علّها تساعدني وأتراجع، لكنّها أومأت برأسها، أي افعلها وحرّر نفسك.

يديّ على الزناد، عضضت على مخارج حروفي بغيض:

-لم فعلت ذلك يا عمران؟

أدار رأسه نحوي نصف دورة مغشّى العينين، وقد جفّت على أذنه بقعة دم يابسة، وبصوت مبحوح:

-لقد قالوا لي إن قلت أنّي أتعاون مع الحكومة سيطلقون سراحي، لكن إن كنت تعتقد أنّي كاذب وفعلتها فحرّرني إذًا واضغط على الزّناد يا صاحبي.

رفعت رأسي للسّماء ويديّ عاليا، ناجيت الله بقلب ضعيف (هل أفعلها يا ألله، أرسل لي إشارة، أيّ إشارة منك)، سقطت على وجهي قطرة مطر، أخذت تمطر، صحت وعيناي منزرعتان في وجه أمّي (سامحيني يا أمّي، ديننا دعانا للعفو لا للثّأر والانتقام).

حين سمعت العمّة نورا ذلك ركضت بجنون نحو عمران، كشفت عن عينيه وحاولت حلّ وثاق ابنها، حاول مسلحون من العاملين في الهيئة الشّرعية منعها من ذلك، لكنّها تمسّكت بابنها، فقاموا بدفعها حتّى سقطت أرضًا، احمرّ وجه الأمير الشّرعي غضبًا لذاك الفعل ثم صاح كالبغل في وجهي (نحن من يحدّد الأحكام لا أنت، حتّى لو عفوت نحن لا نعفو عن الخونة والمرتدّين)، أدركت أنهم سيقتلونه لا محالة، وسيتمّ تلفيق تهمة بحقّي، نظرت إلى عمران ونفخت شدقي الأيمن، فأومأ برأسه بحركة خفيفة، ومن كرامات الله لنا أن دوى في السّماء صوت طيارة ميغ تابعة للحكومة،

أسرعت أمّي نحوي بوجه يقدح منه الشّرر، حاولتْ أخذ المسدّس من يدي، وحين رفضتُ ذلك، أسرعتْ لتخطف البندقية من يد ابن عمّي، سقطت عيناي على عينيه، أومأت له ألّا يفعل ذلك، فبدل ذلك أمسك بندقيته وأطلق الرصاص في الهواء، تخابط الجمع من الناس ببعضهم. وفي خضم المعمعة خرجت رصاصة أخرى لا أحد يعلم مصدرها، صاح أحد عناصر الهيئة (قُتل أبو المغيرة)، أبو المغيرة هو أحد أعضّاء الهيئة الشرعية في المكان، أمسكت يد عمران وانطلقنا مبتعدين، خلفنا انهال الرّصاص على مقتل، رأيت أمّي تخطف بندقية ابن عمي وتطلق الرّصاص نحونا. أنا أعلم أنّها من عشيرة بدوية قاسية لا تعرف الرّحمة، لكن لم أكن أعِي أنّها تحبّ والدي، حتّى على حساب ابنها، كلّ هذا الحب.

اتخذنا طريق فرعية نحو الوادي، ركضنا حتّى انقطعت أنفاسنا، لحقوا بنا، عند شفة الوادي القاسية قفزنا في المنحدر، أطلقوا النار علينا ورموا الحجارة خلفنا، سقط أحد الحجارة على مقربة منّي فزلّت قدمي في الطّين فتمزّقت أربطة ركبتي، لكنّنا لذنا في إحدى الحفر على سفح الوادي. قامت الطّائرة بقصف المكان، فغادر الجميع.

بقينا في الحفرة للمساء، لم يتلفّظ أي منا بحرف، سوى أن عمران قام بقطع قطعة قماش من جانب سترته المهترئة وربط بها ركبتي، سمعنا صوت إطلاق نار متبادل، ثمّ تلاه سقوط عدة قذائف هاون بين جانبي القرية الشّرقيّ والغربي.

كان جانبي القرية على الدوام مطوق بالخنادق ولعلعة الرّصاص التي لا تنام، فأبناء الجنوب عنيفون جدًّا، أنا أعرف هؤلاء الريفيين كمعرفتي لوجهي في المرآة، فما أن يجد الرّيفي فرصة ليعبّر فيها عن مشاعره حتّى تراه يحمل السّلاح، وإن لم يجد تجده يضع سكّينًا في جيبه على الدّوام، لهذا تسلّح الريفيّون قبل غيرهم في هذه الحرب الشّاملة، كما من بين هؤلاء خرجت تيارات جهادية دخيلة لا تعرف من الله سوى أسمائه الحسنى. لهذا بعد تطوّر الأحداث في الجنوب وأمام شلّال الدّم الّذي تسايل على جنبات الطّرقات وانسحاب القوّات الحكومية من القرية، سيطرت فصائل المعارضة المسلّحة على كامل تراب عش الترك، لكن سرعان ما تنازع سلطتها هناك فصيل إسلامي متشدّد وهو أكثر الفصائل الجهادية تنظيمًا وقتئذ. فوقعت معارك دامية بين الطّرفين، أصبحت القرية على إثرها وفي غضون أشهر منقسمة لقسمين، قسمها الشرقي مع دوار عاصم تحت سيطرة الفصيل الإسلامي فعرفت بالشرقية، في حين كان الوادي والقسم الغربي من القرية يخضع لمجموعات محلّية، وأهم تلك المجموعات كانت "أولاد عقيلة" وهي مجموعة مستقلّة باتت تعرف باسم عصابة أولاد عقيلة فيما بعد حيث وجدت في عدم انضوائها مع أيّ جهة عسكرية فرصة لتمارس بلطجتها، أمّا مجموعة أبو حمزة الفلو التابعة لما يعرف باسم "الجبهة الجنوبية للجيش الحرّ" فكانت تحمل اسمًا رسميًا باسم أحد أسماء صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلّم لكنّها محليا كانت تعرف بمجموعة أبو حمزة أو صبيان الفلو. لم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ فقد تنازعت هاتان

المجموعتان -في الغربية- السّلطة فيما بينهما فسالت دماء كثيرة وقتل شبّان ومدنيون كثر جرّاء ذاك النّزاع، فاتّفقوا في النهاية على الصّلح حين باتت الفصائل الإسلامية تستغلّ ذاك النزاع وتقضم من مناطق سيطرتهم، فوقّعوا لذلك فيما بينهم وثيقة شهيرة عرفت باسم وثيقة العهد، على إثرها اتّفق الطّرفان عدم منازعة مصالح الطّرف الآخر أو الغدر به أو التّحالف مع فصيل آخر يناصب الموقعين على الوثيقة العداء أو الخصومة.

لهذا عند صلاة الفجر انحدرنا باكرًا بحذر إلى الوادي باتّجاه الغربية. سرنا ببطء شديد في حقل ألغام، رغم أنّ المسافة الّتي اجتزناها في حقل الألغام لا تتعدّى الخمسين مترًا إلّا أنّنا أمضينا قرابة السّاعة والنصف حتى عبرنا المكان، كنّا نسير على أعصابنا، تنفّسنا الصّعداء حين عبرنا الشّريط الشّائك للضفة الأخرى، وحين وصلنا إلى الطريق الاسفلتي جلسنا على جانب الطريق خائري القوى، جلس عمران وقد غرس عينيه في الأرض خجلًا، قال كلمة واحدة فقط:

-شكرًا

كانت الكلمة الأولى الّتي قالها منذ هربنا حتّى الآن، رمقته بنظرة مرتاحة، أدركت كم كان يشعر بتأنيب الضّمير، وحتى أريحه من عذابه ذاك قلت بودّ:

-فعلتُ ما كنتَ ستفعله لو كنت مكاني... أنا أثق بك، أنت لا تفعلها، ولو كان لديّ شك واحد بالألف لكنت حرّرت تلك الرصاصة وقتلتك البارحة دون أن يرف لي جفن.

حوقل عمران بحزن، نظر إلي بعينين مكسورتين فبان وجهه الناحل ولحيته التي نمت على وجهه بشكل شعث، آه كم كبرنا يا ولد. عينه اليسرى محمرّة لشدة ما عذّبوه، أظافره الطويلة الممتلئة بالتراب والوحل، جرح في إبهامه وعلى أذنه وقد جمدت عليه الدّماء، قدماه الحافيتان، هل سار كلّ تلك المسافة حافي القدمين ولم ألحظ ذلك.

قال بتعب:

-لقد أجبروني على الاعتراف، أقسم بذلك يا صديقي، قال لي أبو سراقة وهو الكلب الذي كان يحقّق معي، قال لي إن قلت أني قد وشيت للحكومة سيطلقون سراحي، لقد صدّقتهم، إنهم يدّعون أنهم يطبّقون شرع الله، بل قل شرع الشّيطان، لم يخطر ببالي أنّهم يكذبون، لقد أخبرتهم جميعًا أن والدي كان مريضا بالسّكري والكلّ في القرية يعرف ذلك، وأنّ موجة السكري الأخيرة -وأنت تعلم ذلك - قد ضربت عينيه وقدمه، وبعد أن قمنا ببتر ساقه في المشفى الميداني في القرية أصيبت بالغرغرينا، فنقلته إلى دمشق. أخبرت والدك ألا يأتي معنا، لكنه أصرّ على مرافقتنا إلى العاصمة، قلت له إنّ في ذهابه لدمشق مخاطرة، فنحن قادمون من منطقة خرجت

باكرًا عن سيطرة الحكومة وذلك سيدفعهم لمساءلتنا على نقاط التفتيش حين يعلموا ذلك. لكنه قال لي إنّ سجله نظيف عند الحكومة وأننا كالكثير من عوائل القرية لسنا طرفًا في هذه الحرب وإنه لم يعادي الحكومة مطلقًا. وهناك في المشفى فارق والدي الحياة، لقد بكاه والدك كثيرًا. حملنا جثّته وعدنا بها لندفنه في القرية وفي طريق العودة كانت الأمور سيّئة على الحدود الإدارية بين محافظتي درعا ودمشق، لقد أخبرنا صاحب الحافلة التي تقلّنا أن مسلحين اقتحموا نقاط التفتيش والحواجز القريبة من الرّيف الشّمالي من درعا وأنهم قتلوا ضابطًا في الجيش وعدّة عناصر له. وبالفعل حين علم العناصر عند الحاجز أنّنا نحمل جثة معنا أحاطوا الحافلة وأجبرونا على النزول، فاقتادونا إلى داخل الثكنة وهناك قاموا بالتحقيق معنا فرادى، منحتهم التقرير الطبّي لوالدي وعاينوا الجثة ثم طلبوا منّي الانصراف، سألتهم عن والدك فقالوا لي بالحرف (حين ننتهي من التحقيق معه سيطلق سراحه). صاحب الحافلة نصحني بالانطلاق وقال لي لربّما بحق والدك تقرير كيدي أو أن هناك تشابه في الأسماء لمطلوب آخر وحين يحققوا معه سيقومون بإطلاق سراحه. وحين وصلنا إلى القرية أخبرت الجميع بالقصّة، لكنني تفاجأت في اليوم التالي أن قام عناصر مسلحون من الفصيل الإسلامي باعتقالي بتهمة التخابر لصالح الحكومة. لم يصدّقني أحد، قال لي أبو سراقة (كيف لم يلقوا القبض عليك والجثّة تعود لوالدك؟) وحين قلت له لربما أطلقوا سراحي لأنّي أحمل تقريرًا طبيًّا، قام بضربي كما لو أنّي شتمت أباه، ثمّ عذبوني بما يعجز عن تحمّله أي حمار.

-لا عليك، هذا ابتلاء عظيم لكلينا، ادعوا الله معي أن يطلق سراح والدي وستظهر حينها الحقيقة. المهم الآن إلى أين تقترح أن نذهب، فحالتنا تحتاج إلى علاج وراحة، ساقي تحتاج إلى عناية وأنت كذلك.

انفرجت أسارير عمران قليلًا فقال:

-إلى حازم، ما رأيك؟

-حازم الذي... ؟

-نعم حازم الرومنسي.

-وهل تعلم أين يقيم؟

-عند نقطة الصفر، يقيم في عزبة هناك

خلعتُ له فردة حذائي ومنحتها له، ومشينا على الطريق كلٌ بفردة حذاء واحدة.

تعلّقنا في مؤخرة جرّار زراعي يجرّ صهريجًا كان قد اتّجه لقلب الوادي. جالت عينا عمران المكان، وسحبتُ عينيّ أنا أيضًا لمكان سقوط عينيه، استذكرنا طفولتنا في هذا الجزء من الوادي، ثم قال كمن يحدّث نفسه بحسرة:

-كلّ شيء تغيّر، ليت الأيام تعود.

كانت عزبة حازم عبارة عن مثلّث جغرافي داخل المنطقة منزوعة السّلاح بين هضبة الجولان المحتلّة وعشّ الترك وريف درعا الغربي. كانت عبارة عن عدّة خيم من أكياس الطّحين والخيش وبعض البيوت البدائية المعمولة على عجل من الحجر والمسقوفة بالأخشاب وأعواد القصب، يوجد في هذا المكان قرابة الثّلاثة عشر خيمة وكوخ، بعضها خالٍ من البشر صنع من قبل أشخاص للحالات الاضطراريّة، كالاختباء في هذه المساكن في حالات وقوع اشتباكات أو في حالة نزوح مفاجئ.

في نهاية الطريق الأسفلتي انحدرنا في جرف ضيّق حتى وصلنا العزبة، من بعيد تظلّلت سيدة أربعينية حبلى فوق صاجها الصغير تصنع خبزًا، حين دنونا منها توجّست لقدومنا في هذا المكان الموحش، وقفت فكان محيّاها المعفّر بالتراب ودخان الصاج المتشرب في ثوبها الممزق كسيدة من قبائل سحيقة.

نفرت غرّتها من حجابها وقد لوّحتها الشّمس فأصبحت صفراء صدئة، كما ربطت طرف ثوبها في مئزرها.

ألقينا عليها السّلام، تدارك عمران خوفها فقال لها مطمئنًا:

-نحن من عش الترك، جئنا نبحث عن رفيقنا حازم، أخبرنا أخاه صيّاح أنه يرعى الماعز هنا... سيدتي هل تقرئين؟ هذه هويتي إن لم تصدّقي.

أجابت السيدة بحذر:

-الحمد لله على سلامتكم، أتعنون حازم خير الله؟

أجابها عمران:

-نعم هو بذاته

-إنه يرعى بعيدًا عن هنا، سمعته اليوم يقول لزوجي إنه سيرعى في الجرف الغربي، يُفضَّل ألا تلحقوا به كي لا تضلّوا الطّريق، عليكم انتظاره لحين غروب الشّمس

تهامست مع عمران:

-ماذا سنفعل لذاك الحين؟

-عليك أن تسأل ماذا سنفعل إن طالت الحرب أكثر من ذلك

شكر عمران تلك السيّدة، وحين هممنا بالمغادرة صاحت خلفنا:

-يا إخوتي بالإمكان أن ترتاحوا في إحدى العرائش، بعضها غير مسكون، اذهبوا لتلك العريشة هناك، إنها لأخي وهو لن يأتي لأسبوع، تدبّروا أمركم هذا الوقت.

عمران شاكرًا:

-لن ننسى معروفك سيدتي.

-انتظرا، قبل أن تذهبا خذا رغيفي خبز، لربما لم تذوقا الطعام منذ وقت طويل.

كان معروفًا نبيلًا منها، فالجوع كاد يقتلنا، دنونا نحوها، وجلسنا نسترق بعض الدفء من صاجها في هذا الصباح الكانوني البارد، استحوذ انتباهي الصاج، فقد كان صغيرًا، وحين دقّقت النظر فيه فإذا هو عبارة عن غطاء قديم مبرّد للغم مضاد للدّبابات، أخذنا رغيفي خبز ثم كرّرنا شكر صنيعها ومضينا.

كل شيء في هذا المكان الضيّق قد تنفّست به الحرب، وجه المرأة الأسمر الكالح، أسنانها الصفراء المنخورة وهندامها الممزّق يخلق في رأسي تساؤلًا واحدًا كيف لزوجها أن يمارس الحبّ معها إن لم يكن مثلها شبحًا بائسًا.

عواء معدتينا مثل قرقعة الدبّابات ونحن ننهش خبز الصاج الحار بشفاه قشيبة، وجوهنا الحائرة عن طريق لمستقبل مجهول، خيم المطرودين من الحرب، أسلاك الاحتلال الإسرائيلي اللامعة والحادّة على ضفة الوادي الشمالية الغربية، رفيقنا حازم الذي يرعى في أماكن محرّمة دوليًّا على السّوريين، كلّ شيء هنا يخبرني أنه لا يبدو أن شيئًا سينتهي قريبًا.

كانت العريشة منخفضة، عبارة عن غرفة صغيرة مربّعة بُنِيت من الحجارة المطليّة بالطين والتربن بارتفاع مترين، تمَّ سقفها بأعواد القصب والدفلة المتوفِّرة بكثرة في المكان، كما تمّت تغطية سقفها بشادر بلاستيكي، كان بابها

المعمول يدويًا من لوح زينكو مهترئ مخلوعٍ، أو بالأحرى لم يركّب من الأصل، فقد رُدَّ على مدخل العريشة، لهذا يتطلّب الدّخول أو الخروج حمل الباب ووضعه جانبًا.

داخل المكان قطعة من حصير قصيرة مهترئة، وثلاث إسفنجات قديمات وضعت بشكل جانبي، وحرام سميك طوي فوق ثلاثة وسائد، في الزاوية القريبة من الباب إبريق شاي وكأس واحدة وملعقة وسكين وسطل فيه بعض الماء. وجميعهن مطليات بالدخان.

ألقينا نظرة على المكان ثمّ خرجنا نسترق ضوء الشّمس الدّافئة، قال عمران إنه يرغب في النّوم، عاد للعريشة ودسّ جسده في الحرام الرّطب، ما هي إلا بضعة دقائق حتّى وجدت نفسي بجانبه وقد غططنا في نوم عميق.

٨

استيقظنا على بندقية مصوّبة على وجهينا، يحملها مسلّح قد اقتحم خلوتنا قبل أن يقَلب سطل الماء ويجلس عليه، كانت أشعة الشّمس المتسلّلة من الباب لا تحجب فقط رؤية وجه هذا المسلّح بوضوح، وإنّما تخبرنا أيضًا أنّنا أمضينا ساعات في النّوم هنا، خيّل إلي أنه أحد رجال الهيئة الشرعية حين بدأ حديثه بعصبية:

-هل تحملان السلاح؟

قلت بخوف:

-أحمل مسدسًا، لكن صدقني إنّه للحماية الشّخصية

قذفت إليه المسدّس، ثمّ طلب بطاقتينا، أخرجت وعمران البطاقات الشخصية

-من أين أنتما؟

-عش الترك

-لِمَ أنتما هنا؟

لم نتمكّن من الإجابة، استقام على ساقيه حين أدرك حيرتنا، وطلب منّا الخروج خارج العريشة، اعتقدت أنّها نهايتنا، وجهه الأسمر ولحيته القصيرة، حنكيه المطويان جوعًا، كلّ ذلك دفع عمران للقول:

-لا تتسرّع يا سيّدي في حكمك، نحن مدنيون، أعطنا الأمان وسنخبرك بكلّ شيء.

-لكما ذلك شرط ألّا تكذبا.

-لقد هربنا من الشّرقية نحن مطلوبان للفصيل الإسلامي هناك، وجئنا إلى صديق لنا هنا لنلتجئ إليه حتّى يفرجها الله علينا ونغادر البلاد، جئنا إلى هنا لنعبر الحدود الأردنية إلى مخيم الزعتري.

في تلك الأثناء كانت السيّدة الأربعينية وطفلها يراقبون من بعيد وبخوف ما يجري، صاح أحد الأطفال على ذاك المسلّح (بابا) قلت:

-خذنا إلى حيث يرعى حازم وسينصفنا إن كنت تقبل شهادته

وكمن يريد غمرنا بذكائه:

-أخبراني قبل أن أفجّر رأسيكما، لأيّ جهاز أمن تتبعان ؟

قال عمران:

- اتّق الله فينا يا سيدي، سل حازم خير الله إنه يعرفنا. أبعد بندقيتك كرمى لله ودعنا نجلس وسنحدّثك بقصّتنا.

أخفض الرّجل بندقيّته، وجلس وقد ترك مسافة كافية بيننا، وحين انتهينا من الحديث قذف بندقيّته إلى يده اليسرى ثمّ مدّ يده اليمنى وقام بمصافحتنا معتذرًا بأدب:

- تعلمان كم نعيش أوقاتًا عصيبة، أنا أبو لؤي شريك حازم في معزاته، ولقد بلغني عن هروب شابين من عش الترك الشّرقية أثناء تنفيذ حُكم القصاص. تفضّلا لنتناول الغداء.

حككت رأسي مازحًا:

-لقد شبعنا رعبًا اليوم.

ضحك بهدوء، بل كانت ابتسامة أكثر من كونها ضحكة، ثمّ طلب منّا أن نصلّي الظُّهر ونتبعه لتناول الغداء.

عمران لا يصلّي، و لا يمارس الطّقوس أبدًا، أمّا أنا فكنت أتواتر على هذا الفعل منذ الصّغر، لكن صلاتي لم تكن منتظمة خلال الأشهر الأخيرة، فمثلًا يوم أمس لم أصلِّ ولا فرض.

توضّأ عمران على مسيل ماء عذب، راقبته مندهشًا، صوّب سبابته للجنوب، تمتم متشهّدًا، ثمّ بحث عن أرض طاهرة ليصلّي، كنت مسرورًا جدًا، لم أسأله إن كان بدأ بالتزام الصّلاة، ما يهمُّ الآن هو أنه خطا الخطوة الأولى.

الصّلاة فعل جميل، كلّ يوم أصلب هامتي خمس مرّات، أنحني، أسند بذراعيّ الأرض، أثبتها بجبيني كي لا تدور، أنهض من جديد فأسقط مرّة ثانية، ثالثة وخامسة فأزداد رفعة. ليس كلّ سقوط يذلّني، في السّجود وحده السّقوط هنا يزيدني رفعة.

في كوخ أبو لؤي كنت جائعًا جدًّا، كان مسكنه أكبر قليلًا من المكان الّذي نمنا به وأكثر دفئًا، فقد صنع من سطل من التنك مدفئة وقد ملأها بالحطب، كانت تنشر الدفء والحميميّة. أخذ هو وعمران يتحدّثان عن الوضع السِّياسي في البلاد وما جرى في القرية، في حين كانت رائحة البيض المقليّ الّذي تصنعه زوجته هو ما يشغل بالي.

كانت المائدة جدّ بسيطة، لكنّها تنمّ عن لطف كبير، لبن وبيض مقليّ وبعض العصيدة وشاي وخبز تمّ تسخينه على المدفأة، أكلنا بارتياح كبير، فالطّيبة والبساطة والخير بالإمكان لمسها حتّى لو كان المضيف لنا لا يقوى سوى على التبسّم، إنّها فعلًا عائلة طيّبة.

٩

قبل غروب الشّمس جلسنا ننتظر حازم.

-هل تعتقد أن حازم نسي ما فعلناه به في صغرنا؟

سألت عمران مستفسرًا

أجابني:

-تقصد حين ابتززناه بداليا؟

-نعم

-لقد كنّا صغارًا والرّجال لا يحاسبون بعضهم على طيش الطّفولة.

أقفلنا حديثنا ونحن جالسان فوق صخرة كبيرة تطلّ على مكان رعي حازم ننتظر قدومه، تمامًا في المكان الّذي أخبرنا أبو لؤيّ أن ننتظره به. أخذ عمران يتذمّر وهو يدكك جزمته القصيرة الضيّقة التي قام أبو لؤي بمنحها له ليرتديها حين علم أنّه ترك نعليه في السّجن.

كانت الشّمس تقرب من السّقوط حين أخذ صوت الماعز يصعد من الوادي، بعد لحظات خرج حازم بوجهه الأسمر النحيل من بين الصّخور

يسوق ماعزه أمامه ويحمل على ظهره حزمة من عيدان يابسة، سرّني لقاؤه كثيرًا، لذا صرخت:

-حازم الوحش

طرح حازم حزمة الحطب عن رأسه، تفحّصنا بنظراته ثمّ مشى مسرعًا نحونا مثل أمّ التقت أولادها بعد طول غياب، ابتسم ثمّ قال بودّ:

-ألا زلت حيّا يا شيطان

كانت حاله مزرية، فثيابه الرثّة والممزّقة تخبر كلّ من رآه كم صارع من الخوف والتشرّد والوحدة في هذا المكان.

التفت إلى عمران وقال متوقّعًا:

-عمران؟! يا رجل كم من السّنين الّتي مضت ولم نلتقِ، لقد تغيّرت كثيرًا

احتضنا بعضهما، قال عمران:

-كنت أستمع لأخبارك دائمًا، كما كانت تصلني تحيّاتك

قلت مقاطعًا:

-لقد كبرت يا رجل منذ آخر مرّة رأيتك بها، لقد ازدادت سمرتك وتبدو أنحف من ذي قبل، أين العضلات، حتّى أنّك تبدو أقصر من السّابق.

-ماذا تتوقّع من شخص يقضي أيامه منذ عام في الوادي، كما أنّي أرعى الماعز كما ترون، إنّها قصّة متعبة، لتكون راعيًا للماعز عليك أن تنزع ساقيك وتضع مكانهما نابضين، مع ذلك لولاهنّ لكنت انتحرت منذ زمن، إنهنّ يؤنسنني في غربتي.

قلت مازحًا:

-إذًا حلّت المشكلة، هل تقبل أن يُشاركك هذان التّيسان غربتك أيضًا؟

ضحِكَ:

-فيكما الخير والبركة، إنّها فرحة عظيمة أن تكونا معي، لقد فرغ قلبي من الوحدة، تفضّلا لنذهب للمنزل تبدوان في حالة حرجة.

عاد وحمل عيدانه وحطبه وقمنا بسوق الماعز معه، سأله عمران على الطريق:

-إنّك تربّي لحية، وقد حلقت شاربيك.

ضحك مازحًا:

-إنّها من عدّة المرحلة، هم يسمونها هكذا، وكي أتجنب أذيتهم عليّ أن ألبس جلدهم، لدينا وقت كافٍ للحديث، يبدو أنّها حرب طويلة.

بتنا في تلك اللّيلة في مسكنه الخاص، إنّه يجيد البناء، بدا ذلك واضحًا من عريشته المتقنة الصنع، كانت أحجارها مقطوعة بإتقان، وسقفها محكم ولا يدلّ على وجود أماكن لدلف الماء، قدّم لنا العشاء وكان عبارة عن ثلاث بيضات مقليّات، اعتذر كثيرًا على ضيافته، وعدّها غير لائقة للقائنا الأوّل، لكنّه لا يدري أنّ فضله علينا كان كبيرًا في تلك الأيام.

لقد روى لنا في تلك اللّيلة قصّته، كيف داهمت قوات الشّرطة منزله حين قام مختار القرية بالشّكاية عليه لأن معزاته أكلن شجيرات المختار.

قال عمران ممازحا:

-لكم تحبّ الأذية، لم تعلق إلّا مع المختار؟

-إنّه رجل لئيم لقد تقصّدت فعل ذلك.

قلت متفاجئًا:

-يعني أنت تعترف بذلك

-ولم لا أعترف، نعم لقد تقصدت إفلات معزاتي لشجيراته ليلًا، لهذا جلبت معزاتي لهذا المكان وهو مكان لا تصله الحكومة، إن قاموا باعتقالي بسبب أذيّتي لجاري المختار لن أخرج من السّجن ولربما سيتّهمونني أنني من أشعل الحرب في البلاد.

سأله عمران بحذر:

-لكن القرية تقول غير ما تقوله.

سأل حازم بفضول:

-وماذا يقولون؟

-إنّهم يقولون أنّك عفت القرية والسّكّان لأن والد داليا لم يزوّجك إياها.

سكت ولم يقو على الإجابة، تبادلنا أنا وعمران النّظرات، وكمن شعرنا أنّنا قمنا بإحراجه اعتذر عمران:

-لم أقصد إحراجك، أقدّم بالغ اعتذاري.

اصطنع ضحكة صغيرة على فمه:

-لا عليك، ليقولوا ما يقولوه، ها أخبراني حكايتكما.

أدركنا أنّه لم يكن ليرغب في مواصلة الحديث في نفس الموضوع، فحازم لم يهرب من المختار كما قال، إنّما هرب من الحبّ، فقد رفض والد داليا الجميلة تزويجها له، حاول حازم بألف طريقة ليتزوّجها لكنّ والدها أصرّ على رفضه، فأجبرها والدها في النّهاية على الزّواج من عجوز كويتي، لكنّها بعد ثمانية أشهر عادت لأهلها مطلّقة، فتزوّجتْ بعد ذاك الخرف أكثر من ستّ مرات، كان والدها رجلًا قوّادًا حقيرًا يجبرها على الزّواج ليومين أو

أسبوع أو شهر من ثريّ خليجيّ ومن ثمّ يقوم بتطليقها، أعجبته تلك التّجارة، حتّى بات الْجميع يطلق على تلك الزّهرة الرّقيقة في القرية داليا العاهرة. ومنذ ذاك الحين ترك حازم القرية وسكن في شعاب الوديان ولم يخرج من حينها.

أعرف أسماء فتيات كثر تمّ بيعهنّ بتلك الطريقة الرّخيصة، أمل، سارة، صباح، محاسن وحتى أختي أسيلة، فقد تزوّجت هي الأخرى من رجل سعودي طاعن في السنّ، بكى أبي مثل طفل صغير ليلة رحيلها، لم يكن يرغب في ذلك الزّواج لكنّها أصرّت عليه لتنتشلنا من الفقر، أما أمي فما كان يؤنسها لغياب أسيلة أنها لم تكن الوحيدة في القرية الّتي تزوّجت هكذا زيجة، ففي تلك السّنوات الّتي سبقت الحرب كانت فتيات الأرياف في الجنوب أبقار يتمّ تسمينهنّ ليسقن لرجال مترّهلين وأثرياء في خليج العرب ليقوموا بتدنيس زهرتهنّ ورميهنّ في الشّارع ليذبلن ويتبعهنّ العار للممات، وفي أكثر الأمور كرمًا كن يتحولن لخادمات لزوجة جديدة وهذا ما أذعنت به أسيلة وقبلت به على وجع.

١٠

فوق تلّة صغيرة تشرف على سدّ الوحدة جنوب غرب البلاد جلسنا، كما كلّ يوم منذ شهرين، ننتظر مع آلاف النّاجين الفرج، ذاك "الفرج" الّذي يبدو أنّه لن يأتيَ قريبًا.

جلسنا نراقب بوجه تملّحت تقاسيمه تلك السّيّدة، الّتي تجلس مثلنا كلّ يوم عند بركة ضحلة قرب السدّ هي وابنتها ذات الثمانية عشرة ربيعًا، لقد سمعت بقصّة تلك السيدة النّازحة الّتي هربت من أحد أحياء الغوطة في دمشق لتنجو بطفلها وابنتها من الحرب، لكنّها بعد أيام من قدومها إلى هنا أضاعت طفلها ذا العشر سنوات وحين بحثت عنه وجدته غريقًا وقد التهمت أسماك السّدّ عينيه وأذنيه، هل تعي ما يعنيه أن تحمل أمٌّ صغيرها بعينين مُجوّفتين؟ أصيبتْ بالهلع، ركضت هاربة، مبتعدة، تصرخ بأمومة منكِرة لمصيبتها (ليس ابني، هذا ليس ابني)، أمضت شهورًا عدّة لتخرج من تلك الحالة، ومنذ ذاك الحين وكلّ يوم وهي تجلس هناك في نفس المكان الّذي فقدت فيه ولدها.

نحن أيضًا كلّ يوم منذ قرابة الشّهرين نودّع حازم عند كلّ صباح ونجلس مع الآلاف من الهاربين من الحرب، نقف هناك راقبين أن تسمح الحكومة الأردنية بفتح المعبر، وقد جاء ذلك بعد إعلان الحكومة الأردنيّة إغلاق

الحدود أمام الأفراد من اللّاجئين السّوريين، حيث سمح حينها بدخول العائلات فقط.

علمنا من أحد النازحين هناك أن الأمر قد يطول، لهذا أخبرنا أنّ قسما كبيرًا من الشبّان بات يدخل الأراضي الأردنيّة خلسة، وأنّ هناك أشخاصًا يمتهنون هذا الأمر لقاء بعض المال. لعب ذاك الرّأي في رأسينا لهذا طلبنا من "أبو لؤي" المساعدة وذلك بحكم علاقاته القوية في المنطقة.

بالفعل تمكّن أبو لؤي في أقلّ من أسبوع من تأمين مجموعة تعمل في تهريب البشر مع الجانب الأردني عند الحدود، ولإتمام العمليّة سارعتُ لبيع مسدّسي وقمت بتأمين أجرة العملية لكلينا.

اتّفقنا على مكان الانطلاق، كان مكان الانطلاق بين تلّتين صغيرتين في قلب أحد وديان حوران الغربيّة، هناك كانت تنتظر معنا في المكان السيّدة الثّكلى وابنتها على الطّريق.

حين وصلنا ألقى أبو لؤي التحيّة على السيّدة:

-السّلام عليكم.

ردّت السّيدة برزانة:

-وعليكم السّلام، أين جماعتك يا أخي؟

-اتّصلتُ بهم قبل قليل، لازالوا على الطّريق، لن يمضي وقت قليل حتّى يكونوا قد وصلوا.

-هل هم ثقة يا أخي؟ أرجوك ألا تفهم كلامي بطريقة خاطئة، نحن نسوة ولم يتبقّ لنا رجل يحمينا بعد مقتل زوجي.

-بإذن الله خلال ساعتين ستكونون في الأردن، بعد قليل سيقوم الرّجال بنقلكم لنقطة قرب المعبر وستدخلون كأيّ لاجئين، وأنا قمت بدفع كامل تكاليف نقلكم لأنّني أعرف حالتكما جيّدًا.

-جزاك الله عنّا كلّ خير يا أخي.

في تلك الأثناء، ارتفع صوت من خلف التّلّة، شخصت أبصارنا نحو الطريق، في البعيد كان أحدهم يركض نحونا، تساءل عمران:

- أليس هذا حازم؟

أكّد أبو لؤيّ رأيه:

-أي والله إنّه هو، خيرًا إن شاء الله.

حين وصل كان منقطع الأنفاس يلهث وقد حمل على كتفيه حقيبة، سألته:

-خيرًا يا حازم ما بك؟

-هل تعتقدان أنّي سأترككما تذهبان دوني؟

سأله عمران متفاجئًا:

-هل أنت جادّ؟ ما الّذي حدث لتغيّر قرارك بالرَّحيل؟

-لقد مللت من الوحدة يا أخي، مللت من أزيز الرّصاص والبنادق، مللت من كلّ هذه اللّحى.

ابتسم أبو لؤي:

- وهل تتركني لوحدي؟

-يعلم الله محبّتك في قلبي، لكنّي تعبت من انتظار شيء يبدو بعيد المنال، هذه الحرب لن تنتهي. كما أن لا شيء لي في هذه البلاد.

وضع أبو لؤي يده على كتفه، ثمّ قال بحبّ:

-دعني أودّعك إذًا.

فقاما بضمّ بعضهما البعض.

سألت حازم:

-ومعزاتك يا هذا، لمن تتركهنّ؟

-لقد بعت التيوس ووضعت الإناث في زريبة أبو لؤي مع معزاته، إنّهن أمانة عندك عمي أبو لؤي، إن تمكّنت من العبور هنّ أمانة لديك، وإن عدت أستردّهن منك، وإن وقعت في أيّ ضائقة واحتجت للمال تصرّف بهنّ كما لو كنّ لك.

كفكف أبو لؤي دمعته، ثمّ استدار نحو السيِّدة الواقفة الّتي تستمع لحديثنا، ثمّ أكمل محاولًا إخفاء حزنه:

-هل هناك من داعٍ لأعيد ما أخبرته لكِ يا أختي، حين يتمّ سؤالك على الحدود عن هذا الشابّ (وقد وضع يده على كتفي) أخبريهم أنّ هذا الشابّ هو خطيب ابنتك، وهذان (وقد أشار إلى كلّ من حازم وعمران) أبناؤك، وحين يقوموا بالسّؤال عن أوراقكم الثّبوتية أخبروهم أنّها دفنت مع المنزل جرّاء القصف في الغوطة. هل فهمت يا حازم؟

أومأ حازم برأسه بالقبول.

قالت السّيّدة:

-هذا ما حصل بالفعل لقد فقدتُ أوراقنا الثّبوتية بالمنزل. لا تقلق يا أخي، بفضل معروفك هذا لن أسمح لهم أن يعيدوهما إلّا ورجلي على أرجلهم.

-بارك الله بك أختي، وأنتِ يا ابنتي لا داعي للقلق، كوني هادئة فقط، إن هؤلاء الشبّان هم إخوتك بإذن الله وسيتكفّلون بالحديث نيابة عنك لحرس الحدود.

كانت تلك الفتاة خائفة وخجلة.

في تلك الأثناء اقتربت سيارة نوع تايغر من المكان، يركبها أربعة شبان، اثنان في الخلف أحدهما يجلس على قاعدة دوشكا وآخران في الأمام.

ترجّل الشّابّان اللّذان في الأمام.

-نتأسّف على التأخير لكنّنا سلكنا طريق الوادي الرّملي.

قال الشّابّ الّذي كان يقود السّيّارة، فردّ عليه أبو لؤي:

-ولِم لم تأتوا عبر طريق البلدة؟

- لقد تمّ استهدافه. لا تقلقوا يا جماعة اليوم ستكونون في مخيم الزعتري بإذن الله. هيا لننطلق.

قمنا بوداع أبو لؤي، احتضنّاه وقبّلنا بحرارة، وبكى حازم لوداع أبو لؤي بحرقة.

ركبنا السّيّارة وانطلقنا بالفعل.

في الطريق كانت عينا الشّابّ المنزرع خلف قاعدة الدوشكا لا تتركان مكانا في جسد الفتاة إلاّ وتنظران إليه، كانت عيناه نافذتا شهوة.

بعد مرور نصف ساعة توقّفت السّيّارة في قلب الوادي. ترجّل سائق السيّارة وقد أخرج سيجارته وقام بإشعالها ببطء، سألته السيِّدة:

-لِمَ توقفت يا أخي؟ عسى أن يكون الأمر خيرًا؟

-لعلّه خير يا خالتي، لكنّنا سنمكث هنا لحين غروب الشّمس.

-لكن لماذا؟ إنّ حرس الحدود لا يسمحون لأحد بالدّخول بعد السّاعة السّادسة من المساء.

-هذا إن كنّا نريد الدّخول بطريقة شرعية، لا تقلقي إنّهم أصدقاؤنا وأرجو منك ألّا تتدخّلي في عملنا يا خالتي، وإن لم يعجبك فلتغادري.

توتّر حال السيِّدة المسكينة:

-لا تزعل يا أخي لكنّني أستفسر فقط.

-فليترجّل الجميع.

كان المكان مقطوعًا عن البشر تمامًا، تركنا حقائبنا في السيّارة، وطلبوا منّا المسير في طريق ضيّق ووعر ومتعرّج. كان أحدهم يسير ملتصقًا بمؤخّرة الفتاة، فكانت تحاول الإسراع في مشيها لتبتعد عنه، طلبتُ من الفتاة أن

تسير بيني وبين والدتها واندفع عمران وحازم وسارا في المقدّمة، لكن هذا الفعل لم يرُق لهم.

بعد بضعة خطوات طلب منّا السّائق بنزق أن نعود للسّيّارة وأن تبقى السيِّدة وابنتها، فسأل عمران عن السّبب في ذلك، فصاح أحدهم (لم لا تقودنا أنت، ها، نفّذوا بلا أيّ سؤال)، أمسكتِ السَّيِّدة بيدي ثمّ رجتني ألا نتركهنّ وحدهنّ معهم، لهذا قلت بارتباك:

-ستذهب خطيبتي وحماتي معي أيضًا.

ضحك السّائق بسخرية:

- خطيبتك وحماتك!! هههاي، أتعتقد أنّنا لا نعلم أن لا صلة تربطك بهاتين السّيّدتين، أتريدون الذّهاب أم أجعل خطيبتك وحماتك تقومان بدفنك هنا لكلامك هذا.

ثمّ قاموا بتلقيم بنادقهم نحونا، حاولت السيدة أن تحجز بيننا وبينهم راجية:

- لا تتهوّر يا أخي إنّهم لا يقصدون في حديثهم شيئا.

- إذًا فليذهبوا مع الشّباب للسيّارة وإلّا أفرغت بندقيّتي في رأسهم.

ثم قام أحدهم بإطلاق رصاصة تحت قدم حازم، صرخت الفتاة وتلك السّيّدة بخوف.

دفعتني السيِّدة وطلبت منِّي برجاء أن أطيع أوامرهم، كان الخوف يرتسم على وجهها الأبيض وهو يتلوّى من العجز:

-أرجوكم اذهبوا، لن ينسانا الله يا ولدي، حاولوا ألّا تتأخّروا.

اقتادونا إلى السيارة، حين وصلنا قاما بربط أيدينا للخلف وكذلك أقدامنا، كما قاما بتطميش أعيننا وسدّ أفواهنا بقطع قماش.

بعد مرور نصف ساعة سمعت أحدهم يحدّث الآخر:

- ألم يحن الوقت بعد، لقد تأخّرا؟

ردّ الآخر:

-سأذهب لأتبيّن الأمر.

-خذني معك، لن يتمكّنوا من الإفلات، فأنا لا أحتمل الانتظار حتّى يأتي دوري.

تألّمْتُ كثيرًا، ونزغ الشيطان في رأسي أفكارًا قاسية عن ما حل بهنّ، آه ليتني استطعت فعل شيء. آه من جنسنا نحن الرّجال كم نحن خائنون للأمانات، الجمال يثير غريزتنا ووجوه النساء الدّميمة تحرّك ألسنتنا بتنمر.

بعد مرور وقت عاد الجميع من دونهنّ، لا أعلم ما حل بهنّ، لا أريد أن أفكّر بشيء حيالهن، التفكير بتلك السيدة وبتلك الفتاة المسكينة يؤلم رأسي.

قادوا السيارة وقاموا بنقلنا معهم. وفي مكان ما أجهله تمّ اقتيادنا إلى مكان مهجور حين قاموا بتفريقنا، أنا في جهة وحازم وعمران في جهة أخرى. مشيت في مكان بارد ورطب، سمعت قرقعة أقفال وأزيز باب حديدي. فكّ أحدهم قيودي وأزال الغطاء عن وجهي ثمّ تمّ قذفي داخل غرفة مظلمة.

تجوّلت عيناي بصعوبة في المكان المعتم، تلمّست مكانا وانطويت محاولًا التّفكير بكلّ ما جرى، ماذا حلّ بالسيّدة وابنتها، أين أخذوا عمران وحازم. كوابيسي التّائهة لم تجعل لي من فرصة للنّوم.

بعد قليل شخر صوت من المكان، تلاه طقطقة أسنان وتنهيدة شخص ما. يبدو أني لست الوحيد في هذا المكان. لكنّني من التعب والخوف غفوت منهكًا حتّى الصباح.

١١

في صباح اليوم التّالي تفتّحت عيناي على وجه يحملق في طلعتي، جفلتُ من نومي لرؤيته، فارتطم عقب رأسي في الجدار، فقال ذاك الوجه:

-بسم الله عليك، لا تخف.

تطلّعت حولي في المكان، كانت غرفة صغيرة مستطيلة الشّكل، فرشت أرضيّتها بحصيرة وقد تحلّقتها ثلاث إسفنجات مدعوكات، في زاويتها وضع دلو ماء بسعة عشرين لترًا، وعلّق على الجدار كيس نايلون فيه كسر خبز. أنارت المكان أشعّة الشّمس السّاقطة بصعوبة من نافذة صغيرة مربّعة قرب السّقف، كانت مرتفعة يصعب الوصول إليها أو رؤية شيء من خلالها.

وبدهشة أكمل ذاك الوجه:

-منذ متى وأنت هنا؟ لقد أرعبتني يا رجل... انتظر لحظة، انتظر، انظر إليّ جيّدًا، ألست...؟

قاطعته بدهشة:

-مصطفى؟! ماذا تفعل هنا؟

-يا الله كم الدّنيا صغيرة، فعلًا صدق الّذي قال أن جبل وجبل لا يلتقيان إنّما إنسان لإنسان سيلتقيان، نعم يا صاحب اللّعثمة، أنا هو مصطفى، وإن أردت قل لي دربل.

ضحك ثم قام باحتضاني، كم أصبح لطيفًا عمّا كان عليه في صغره، لقد كبر بالفعل والأهم أنه بلا كرش الآن، بل بكرش صغير.

قال:

-مرّت سنوات طويلة لم نر بعضنا البعض أخبرني يا مشحّر كيف وصلت إلى هنا؟

أجبته باقتضاب:

- قصة طويلة

وكأنه قرأ حيرتي لما ينتظرني هنا فقال مطمئنًا:

-لا تقلق، سيكون كلّ شيء على ما يرام.

تفرّس وجهي بدقّة ثمّ أضاف قائلًا:

-ما بال أنفك ؟ لم يكن كذلك؟

-زلّت قدمي فوق غصن غض لشجرة كينا في طفولتي فسقطت وانحرفت وتيرته قليلًا، هل هو سيّئ لهذا الحدّ؟

كركر ضاحكًا، أنا أعلم أنّه يضحك بتلك الهستيرية لرؤيته لي لا لحديثي، ثمّ قال بمزاح:

-لا تقلق لن يؤثر على سمعتك العاطفية. يقال أن الله وضع كلّ شيء في الإنسان لكن وحدها الملائكة تفرّدت في تركيب أنفه.

حككت أنفي:

- أفهم منك أن الملائكة لا تحبّني؟

- من يدري

أضاف متسائلًا:

- يبدو أنك تعافيت من التلعثم، أو أنك بتّ أحسن من ذي قبل؟

-الحمد لله مع مرور الأيام بات يستقيم لساني.

ضحك لذلك، ثمّ سألني عن الحال الّذي أودى بي إلى هنا وعن عائلتي وعن عمران. لقد مضت أيام طويلة لآخر مرّة رأيت بها هذا الفيل، يبدو أنه لم يعد كذلك، لقد حوّلته السّنون القاسية لفأر، أذكر آخر مرّة شاهدته بها في عرس ابن خالته، التقيته عند بائع الأيس كريم، كنّا في الصفّ الثّامن

على أغلب تقدير. يبدو أنّه لم يعد كذلك الآن صحيح أنّه بدا قصيرًا وله كرش صغير كما انكسرت صلعة صغيرة في هامة رأسه وبدت كبقعة زيت تتّسع يوميًا إلّا أنّه أصبح سريعًا كالغزال.

كان لسان حالي أبين من مقالي، ومع هذا أصرّ مصطفى أن يستمع لحكايتي كاملة وكيف وصلت إلى هنا. لكنّه أصيب بالفزع حين علم أنّ الخاطفين اقتادوا الفتاة والسيّدة لمكان مهجور.

أخفض صوته وقال:

-لا تفكّر كثيرًا في الموضوع إنّهم أولاد عقيلة، سيطلبون المال وتنتهي الحكاية، إنهم عبيد المادة، لو تسنّى لهم أن يؤجّروك مؤخرتهم لقاء المال لفعلوا، لقد سمعت عنهم الكثير حين عدت من دمشق. لا تقلق سيكون عمران وحازم أيضًا بخير.

خطى نحو الباب وتطاول للنظر من ثقب الباب المرتفع، ثم عاد مطمئنًا في حديثه:

-ينتسب أولاد عقيلة لواحدة من أكبر العائلات في الجنوب، ومنذ بدأت الحرب سرعان ما حملوا السّلاح في وجه السّلطة، لهذا تحوّلوا بمرور سنوات الحرب إلى واحدة من أكبر العصابات المحلّية، ليس في عش الترك فقط إنّما في الجنوب، حتّى أنّهم امتهنوا فيما بعد وبمهارة الخطف والسّرقة

والقتل والإتجار بالمخدّرات. حاولت مجموعات من المعارضة استئصالها في الغربيّة لكنّها فشلت بذلك.

كنت على دراية كافية بكلّ ما كان يعرفه عن عصابة أولاد عقيلة ومع ذلك تركته يتحدّث. كان مصطفى مثلنا ضحيّة لهؤلاء. درس مصطفى معهد سكرتارية في دمشق وتخرّج ولم يجد عملًا، أصبح طريفًا جدًّا في حديثه عن السّابق، امتلك ثقافة جيّدة خلال سنوات إقامته في العاصمة وبات يجيد الكلام بحذق. لازلت مندهشًا حتّى اليوم من هذا التحوّل الكبير في شخصيّته، إنه مثل أشكال المادة يتحوّل من صلب إلى ليّن بسهولة.

وكجائع تناول أذنيّ بنهم لعدة أيام، فقد حدّثني بالتفصيل لكلّ ما وقع له، كان مسليًّا في حديثه. أخبرني أنه في عمر الثامنة عشرة أحبّ فتاة في حيّه، التقط عدواها أثناء سيره بالصّدفة في الزقاق المؤدي لبيتها، لم يشف من حينها، هو وحده كان طبيب نفسه وعيناها عِقاره. وبعد سنوات من الحب تفاجأ أنّ ابن عمّها كان يرغب بها، فهو في العرف العشائري أولى بها من الغريب، لهذا حين يسأله أحد سبب وصوله لهذا الحال يلقي باللوم على تلك الفتاة، لأنّها كما يقول هي من أوصلته لهذا الحال. رغم أني حتى الآن لا أفهم ما علاقتها بالأمر كلّه وكيف كانت سببا في اختطافه.

كان ابن عمّها يدعى غالب، وهو شاب وسيم ويمتلك وجهًا سقراطيًا جميلًا، والأهم أنه كان من بين جماعة الصلعان، وهم مجموعة شبان حليقي الرأس

قاموا بتشكيل فريق لكرة السلة في القرية لينافسوا على كأس الجمهورية، وقد تمكّنوا في السّنوات الفائتة من الحصول على الدّرع الماسي على مستوى المحافظة.

كان ضغط مصطفى يرتفع إصبعا إصبع إلى يافوخه كلّما رأى الفتيات تكاد تنفطر على نظرة من أحدهم، لهذا قرّر الانضمام إلى الفريق لعلّه بذلك يستميل صداقة غالب ويخبره أن يتنازل عن حبيبته.

اتّجه إليهم بعد أن حلق رأسه على الصّفر وارتدى جوربين طويلين - كانت تكّة إحداهما مرتخية - وقميصا رياضيا أحمر وشورتا بنيا، أخفت أمّه عيبًا صغيرًا في مؤخّرته بمهارة، ومع ذلك لم يترك أمام إدارة النادي نبيًا ولا قديسًا إلا وقد استحلفهم به حتى يقبلوه في الفريق وأن يشارك على الأقل في المباراة التي ستقام في القرية ضدّ أحد الأندية المحلية.

بالفعل كانت مباراة واحدة، تعهّد خلالها أنه سيريهم لعبًا لم تشهده الأندية العربيّة ولا الغربيّة. وبعد جري متواصل في عرض الملعب جيئة وذهابًا تمكّن مصطفى خلالها من لمس الكرة مرّة واحدة فقط، والّتي سرعان ما خطفها منه لاعب الخصم، ويبرر ذلك مصطفى لرفاقه بالقول (ابن الديوث كان سريعًا مثل كلب سلوقي)، لكنه لم يكن يعلم أن قامته القصيرة ومؤخرته المترهّلة كما رأسه الكبير المليء بالطروح والشّدوخ جرّاء نزاعاته المتكرّرة جعلته كمطبّ صناعي تحت أقدام اللّاعبين الفارعين كالسّرو في الملعب.

مع ذلك وجد مصطفى نفسه فجأة يفقد من أحبّها دون أن يفعل شيئا، لهذا عاد لأسلوبه القديم في حلّ المشاكل فالدّبلوماسية لا تليق به، لهذا ذهب لابن عمّها وأخبره أنّه قد شغفها حبًّا وأنّها هي كذلك، إنها خطوة جريئة وكبيرة في مجتمع محافظ، لكنّه صدم حين أخبره ابن عمّها بالقول أنّها هي الأخرى تشاركه الحبّ أيضًا منذ سنوات، وأمام صدمة مصطفى تهاطل بلا وعي على ابن عمّها ضربًا بالبوكس الحديدي حتّى تمّ إيداعه المشفى، وعلى إثر ذلك ترك قريته هاربًا ولجأ إلى دمشق.

حين كان يروي لي قصّته تلك والّتي مرت عليها سنوات كان لا يزال في عينيه أثر من لوعة واشتياق. لكنّني حين سألته هل لازال يحبّها، تحدّث مثل ذاك الثعلب الضّعيف في القصص الشّعبية القديمة، حين لم يصل لحبّات العنب المرتفعة أخذ يشيع إنه حامض ومرّ ومليء بالدّود. وفي هذا حدّثني مصطفى في مراوغة و بنهم وبلا تعب:

-المواعدة شيءٌ متعب يا صديقي، وأنا رجل يحب أن تأتيه الأمور على رويّة وعلى تمهّل، فلا أعلم ما هي مشكلة هذا الجيل الجديد، يبدو أني لا أستطيع التّأقلم معه. أما هي فقد كانت مختلفة معي، إنها تعجبني رغم أنها لم تكن من عشيرتي، مثقّفة ومن الطبقة المتوسطة، وهو أمر نادر الحدوث في هذه القرية المترعة بالأقاويل والمحظورات، فصحيح أنّها بائنة الطّول وتبدو حين أسير بقربها أطول منّي، وأنّي طوال معرفتي لها لم أميّز بين عنقها وخصرها المبروم، لكنها حين تراني تتمايل في مشيتها برشاقة وبابتسامة ملائكية. ياه،

كانت حين تبتسم يضحك حولي مئة مليون ملاك، وحين تنزوي مبتعدة يكاد قلبي يتشقّق، هذا هو المهم بالنسبة لي... هل تعلم..؟ منها تعلّمت أشياء وعادات لطالما كانت محرّمة لدي، ففي السّابق مثلًا، وفي أكثر المناسبات تكلّفًا، كنت فقط أخلّل أصابعي برأسي المبلّل بالماء، لكنّي بسببها دأبت باستعمال، و على غير العادة، هذا الاختراع الذي يسمى "مشط" على رأس مثقل بمثبتّات الشّعر يوميًا. كما أني ومذ عرفتها تمرأت معها يا رجل لسبب وبدونه .. أذكر أنها طلبت منّي ذات مرة ألا أعود بالتسكع في "سوق الحرامية" في العاصمة، مع العلم أنّني أعشق ذاك السّوق الشّعبي الشّهير والذي احتلّته فيما بعد البرجوازية الصاعدة بمحالها التجارية الضخمة والتي قضت على أحلام كثر من المهربين والمعدمين ممّن كانت هذه القطعة العشوائية هي مصدر انتفاعهم الوحيد... أيضًا من هذه الريفية المتمدنة تعلّمت أن ألتزم في مواعيدي مع الجميع، وزرعت أزهار الزنبق والياسمين في محيط منزلي، كما تحرّرت حنجرتي بالغناء كلّما انتصبت أمام المرآة الّتي أصبحت رفيقتي في المنزل... آه يا صاحبي كثرٌ هم الّذين تحاسدوا حين علموا لمواعدتي لها عند عين الدّفلة، كنت أرى ذلك في أعينهم الضيّقة، وهذا مما لا يستهجن فعله، فهو من الحوادث الطبيعية هنا، فليس في هذه القرية شيء لم يتحاسدوا عليه ولم يتنازعونه، حتّى السّمعة، الصحّة والراحة كانت تزعجهم حين يشاهدونها على الآخرين، إنّهم الجحيم بعينه يا أخي...

تنهّد مصفى ثم أكمل بغيض:

-لكنّها خذلتني يا هذا، الآن حين أتذكّرها أكتشف كم كنت مخدوعًا ومغمض العينين، إنّها لم تكن كذلك، كيف لم أنتبه أنّها لم تكن تحبّني، كيف لم أفهم أني لم أكن أعجبها وأنها كانت تقضي وقتًا معي فقط للتسلية. أتعرف ما أكثر ما كان يمقتني منها، أنها كانت تفضّل القانون والشّرطة في استرداد حقوقي، في حين تعلم أنّي لا أحبّذ رفقتهم. إنهم يكيلون العداء لي يا أخي بلا أيّ سبب، أذكر أنها ضحكت عليّ ذات مرة وطلبت مني أن أتصل بهم كي يحقّقوا فيمن سرق بقرتي، وعندما وصلوا وفتحت لهم الباب، ذعروا ورفعوا مسدّساتهم في وجهي يصرخون (ارفع يديك أيّها اللّص البشع). أظنك ستقول في نفسك الآن أني أتحدّث بعنصرية، أرجو ألا يُفهم كلامي بطريقة عنصرية سيئة، لكنها مشكلة أن تكون المذنب والمدان على الفور في نظر الحكومة فقط عندما يحكموا عليك من سجل عشيرتك الغارق بالذّنوب والخطايا الأخلاقية والقانونية، أو حتّى من النّدوب والشّدوخ التي تركتها الحياة في وجهك وجسدك. ربما هذه النّدوب هي الشيء الوحيد الذي أخبرتني أنها تحبّه في علاقتنا طوال تسعة أشهر مضت.

توقّف عن الحديث ثمّ استلقى على ظهره ورفع ساقيه على الجدار، قال في تهاد مع نفسه:

-خائنة... خائنة، خاااائنة

استدار نحوي نصف دورة وقال في غِلّ:

-ما نحن الرجال طيبون حتى يتم خداعنا بسهولة، في الوقت الذي كانت تقول لي فيه أنّها تحبّني كانت تتفق مع ابن عمّها على الزواج. دبّ. ليس أنت، بل أنا دبّ وله أذنان كبيرتان. أنا أصلًا لم أكن أحبّ هذه السمينة، لا تنظر إلي بهذه النظرة الخبيثة. إنّها... إنها غير جميلة، حتى لو كانت تمشي برشاقة فإن جناحي أنفها مثل فخذي ضفدع مطويين.

رغم كل ما مررت به في تلك الأيام من بؤس وخوف على عمران وحازم ومن مصيري المجهول في ذاك المكان إلا أنني انفجرت ضاحكًا، نظر إلي مصطفى، ثم أقلع هو الآخر في ضحكة كبيرة مجنونة ومدويّة. سكت ثم قال مؤكدًا حديثه السّابق:

- ألم أقل لك أننا طيبون، لو حصل الأمر مع امرأة، وكنت أنا من يلعب على الحبلين لكانت أكلتني بلا ملح. لكننا طيّبون.

غيّر من جلسته وانبطح على بطنه، ثم انبرى من جديد بهدوء وتروٍّ:

-يبدو أننا لازلنا نعيش لعنة جلجامش، صدّقني إنّها لعنة، قبل آلاف السّنين كان جلجامش أبونا الرّجل الطّيّب، حنونًا، رائعًا ومقدّسًا جدًا، نصفه إلاه والنصف الآخر آدمي، يسرح مع الغزلان، ويجاري الوحوش والآفات، وكل

من في الغابة أحبه، لكن ما إن رغبت السّلطة في تدجينه وشيطنته حتّى أرسلت له امرأة فتبخرت الألوهة وتحوّل بعدها لعبد مذلول لأكثر جهازين تدميرًا على هذا الكوكب الجميل وهما الحكومة والمرأة.. ومنذ ذاك الحين وحتى اليوم كأن روح جلجامش تطوف فوق الغابات والمدن، تقول لنا (لا تجري أبدًا وراء امرأة ولا تسابق الحكومة فهناك غيرهما في الطريق). صدّقني هذا ما حصل. لم تضحك؟ أنت لا تصدقني أنا أعرف. ألا ترى أن سبب بلاءنا هما هذان الجهازان. سأقنعك، لم يكن بيتر الأسود مساعد بابا نويل وحمّال هداياه محبوبًا أو حتى مقبولًا يومًا لدى الأطفال، ولا سانتشو مرافق دونكيشوت لامانشي ذاك المسكين معروفًا في القرية ولا حتى يذكره القرّاء. كذلك الأمر بالنسبة للمرأة والحكومة من يحتلان الشاشات يوميًا بحثًا عن صدارة، لا يقويان إلا ليكونا بيتر وسانشو في حياتنا، حياتك أنت كرجل، لكنهما مساكين يمارسون ذلك دون علم. دومًا نحن فقط يا صاحبي من نحدث فرقًا في هذا العالم وندفع الثمن، في الحروب نحن الوقود، وفي السلم نحن مطيّة الحكومة، في الزواج نحن قوّامون على النساء، ندفع، نستدين، نقترض، نعذب، ونتهم بالخيانة. لكننا بحنيّة نعلم بتواضع أنه لو لم تكن النفوس عظيمة لما عُذّبت لأجلها الأجساد... خذ قيصر مثلًا وأنطونيوس وعزيز مصر وغيرهم، هم من الرجال الكثر من الذين كانوا أزواجا مخدوعين، عرفوا ذلك دون أن يثيروا أيّ ضجة، بل وجدوا ذلك قصّة حب. في حين أعرف إحداهن خدعها زوجها مع رفيقتها فما كان منها إلا أن أحرقت وجههما بماء النار.

قاطعته ضاحكًا:

- ليس كل الرجال يتغاضون عن خيانة زوجاتهم، الرّجال في قريتي يقتلونهنّ على الفور حتّى دون البحث في دليل براءتهنّ.

-هذا صحيح، الرّجال نوعان فيما يتعلّق بالخيانة، متسامحون وقتلى مجرمون، لا ثالث لخياراتهم، أما النسوة فلديهن خيار واحد.

-قتل الرجل ؟

-بل إبقاؤه حيًّا والتلذذ في تعذيبه لأطول وقت، هذا هو الفرق بيننا، كما هناك فرق آخر، هو أننا كجنس نادر غالبا ما نفضّل الأصدقاء على العشيقات. فإذا ما وقع الرجل في معصية صرخ الجميع (كم أنت غبي يا هذا، لعنك الله)، ولكن إذا ما ارتكبت المرأة أو أصغر موظف حكومي سفاهة أو فساد صاح الجميع (ما أغبى الحكومة وما أكثر طيش النساء)، لربما نحن القاعدة الوحيدة في هذا العالم التي تنفي أن التعميم عماء.

لوّح إصبعه في وجهي وقد أطبق عينيه نصف إطباقة:

-عزيزي الرجل عليك أن تعلم أنّ كلّ شيء حولك يعترف بقوّتك، فسواء كنت أعزب، أرمل، متزوج أو مخدوع من حبيبة، فكلّها مسميات لجنس واحد هو أنك محور هذا العالم المضطرب. يكفي أنّك تحمل كلّ هذه التناقضات في هذا العالم المخمور بالمعاصي، الحب، الحرب، النظام،

الخراب، التعب والراحة. لهذا لا ينبغي عليك الحزن، لا ينبغي أن تكون شيئًا آخر، ابق كما أنت، ابقَ رجلًا يا أخي.

أنهى كلامه، ثم تنهّد بتعب، كمن كان يضحك على نفسه، لقد عرفت أناس كثر مثله في حياتي، ممّن ينطبق عليهم قول القائل من السهل عليك نصح الآخرين لكن من العسير نصح نفسك، لهذا نكّس كتفيه وقال بقلب مفطور:

-أنا أحبها... سألتني هل أحبها؟ نعم أحبها وهذا يكفي، لقد تحدثت بما فيه الكفاية اليوم، لقد تحدثت عن أسبوع كامل، هو فترة بقائي في هذا السجن الملعون.

***

في دمشق عمل مصطفى في شتّى الأعمال، إذ لم يكن بمقدوره العودة لقريته بسبب عدائه مع عشيرة حبيبته السّابقة، لذا كان ملزمًا في خيار المكوث هناك.

عمل "كصبيّ كوميك"، إنّه أكثر الأعمال المتوفرة في العاصمة، وأكثرها إتقانًا بالنسبة لمصطفى من السّكرتارية الّتي درسها لعامين.

ما هو صبيّ الكوميك؟

إنّه الصبي الّذي يساعد الكرسون في المطعم أو المقهى، حامل الصّحون، الرّديف الذي يسير خلف الكرسون ويمشي بحذر كي لا تزلّ قدماه فيسقط على الزبون. صانع شاي الخمير الّذي يحافظ على حرارته ويصبّه للاعبي الورق والطاولة، الّذي يجهز فحمتي النرجيلة لشبان أنهوا دروسهم وقرّروا السهر خارج المنزل، الذي يسعف رجلًا نزق بفنجان قهوة مرّة ويتركه وحيدًا يمج سيجارته بعصبية كما لو كان بينه وبين سيجارته ثأرًا. هو ذاك الصبي الذي يقاسم الكرسون نصف بقشيشه دون أن يجرؤ ليسأل الكرسون كم حصل على بقشيش.

صبي الكوميك، أو هذا ما كان يحبذ أن يناديه به صاحب تلك القهوة المقامة في بيت شامي كبير وسط حي القيمرية الشّهير في دمشق. فمذ استجار بدمشق وذاك النزل هو ملجؤه.

كان بيتًا جميلًا، باب البيت الخارجي أو ما يعرف بالزّقاق باب ضخم، مكوّن من درفة واحدة كبيرة من الخشب المغلّف بالزّنك، يتوسّطه باب صغير يسمح بمرور شخص واحد فقط. وهي أماكن يعرفها الدمشقيّون جيّدًا.

كان البيت من طابقين، غرف الطابق الأرضي أعلى من مستوى الفناء وذلك لتفادي تيارات الهواء الباردة والتي تتسرب من الأماكن المنخفضة عبر الغرف، في حين تطل جميع غرف الطابق الثاني على فناء الدار، حيث قام صاحب البيت بتأجير غرفه، في حين حوّل صحن المنزل لقهوة صغيرة، إذ اصطفّت طاولات صغيرة بطريقة منمقة تنم عن ذوق شامي رفيع.

بعد الانتهاء من ساعات العمل في هذه القهوة، والّتي تمتدّ من السّاعة السّادسة مساءً وحتّى منتصف اللّيل، كان يقضي حثالة وقته في النوم فوق حجرة غزتها الرطوبة من كل جانب، الذي هو مسكنه طوال تلك الأيام، وهي حجرة ضيّقة بنيت فوق قوس خارجي يربط البيت بآخر في الحارة المقابلة.

تبدّلت الأمور بشكل جذري في صباح ذات الأيام، فانقلبت الراحة النسبية إلى عدم استقرار مطلق. استوقفه صاحب المنزل ليعلمه نيّته رفع أجرة نزله عنده، توقّع ذاك الأمر منه في أيّ لحظة، لكنه لم يتوقع

قراره بمضاعفة الأجرة لثلاثة أضعاف واستغنائه عن أعماله في قهوته. كان من الممكن أن يكون حانقًا لجحوده جهده طوال تلك الأشهر، فهذا العجوز يسرقه، لكنّه لم يفعل شيئا، فأصحاب العقارات والتجار في العاصمة يربون ضميرهم في جيوبهم، لهذا ما أن تعصف أزمة سياسية في البلاد حتى يتفنّنوا في اللعب بقوانين السّوق، وفي تلك الأيام لم تكن الطبقة السّياسية الجديدة في البلاد لتحسد على عيشها، فقد تغيّرت الظّروف الاقتصادية وازدادت الضّغوط السّياسية على البلاد بشكل كبير بعد الغزو الأميركي للعراق، وتفاقمت الأمور أكثر بعد حرب تموز في لبنان عام 2006، فبلغت الأزمة ذروتها ولسنوات تلتها، فخلق ذلك أزمة مركبة كبيرة في العقارات والأسعار والبطالة والتي فاقمها وفود العمالة الرخيصة الهاربة من الحرب من تلك البلدان.

كان مصطفى مراقبًا جيّدًا للإعلام الرّسمي حينها، وذلك عبر صحفه الرسمية المملة، فلازال يحتفظ بأعداد كبيرة منها في سقيفة منزله في الريف. وهو ما كان متاحًا في الأكشاك العامة حينها. فكل أذرع هذا الإعلام كالصحف، التلفاز، الراديو ونشرات الائتلاف الحزبي الحاكم جميعها أدركت حينها، رغم حديثها المكرّر عن النصر، أنّ الحرب باتت تحاصرنا من كل مكان، وأنها قد تقع في أي لحظة، لكن لم يتوقع أحد أو لم يتخيّل أنّ الحرب ستندلع من الدّاخل، من أنفسنا، لنهدّ كلّ ما بنيناه سويًّا في أيام.

وأمام هذه المعرفة التي كوّنها مصطفى لم يقم في ذاك الصباح في مجادلة ذاك العجوز كما يفعل أي مستأجر مع صاحب المنزل، كلّ ما فعله أنه طلب منه مهلة شهر، رغم أنه يعلم أنه مطلب لا يستند في ذهنه لنوايا أو خطط محدّدة للخروج من هذه الأزمة خلال شهر.

فجأة أظلم كل شيء في عينيه، وجد نفسه في مدينة كبيرة وبشعة تغلّفها العتمة وتحمل الكثير من الخيارات. فمذ أصبح مهدّدًا بالتشرّد وهو يقوم كلّ صباح باستقلال حافلة النّقل الدّاخلي بلا وجهة، يتردّد في شوارعها معطّلًا بلا ساعة، لا يلوي على شيء. كذب على نفسه مطوّلًا وردد كل ما قاله إبراهيم الفقي في كتبه حول نفسيته، لذا قال في وليجة نفسه إن مشاكل الوقت لن تهمه بتراكماتها، فهو فقط من عليه أن يتحكّم بنشرته النفسية، لكن لا جدوى من الكتب فلا حلّ يبعد عنه الكآبة واليأس.

بشرود عميق على نحو ميكانيكي من نافذة الحافلة في كرسي الصف الأخير كعادته كل صباح طوال ذاك الشهر كان يشاهد شوارع دمشق تمر أمامه كعجوز حبلى بالهموم، كأغنية كئيبة على نحو صاخب، يراقب موظفي الحكومة العابرين بكسل، زحمة المرور ضمن دراما متسلسلة لا تنتهي، السُباب وحبات الشتيمة المتدحرجة على النوافذ في تدافع العطشى لحجز كرسي فارغ يوصلهم لعملهم، صفير السيّارات الّذي لا يتعب، بل يعلو ويضطرب كلّما ازداد أصحاب السيارات العابرة إرهاقًا وتعبًا.

وفي نهاية الطريق، كانت الحافلة تتوقّف في عقدة مرورية حيث تتعانق سبعة طرق رئيسية في مصبّ واحد في مركز المدينة. في منتصف التّقاطع يقف شرطي المرور مذ بنيت سورية الحديثة، سفعت وجهه الشمس وغطّى صلعته بقطعة قماش مبلّلة علّها تردّ عنه بعض هذا الضّجيج والحرّ مؤديًا حركات مرورية مثل رقصات الدراويش في مولوية مرورية خلقها القانون ليكون على اتساق كامل مع حركة السّير.

تركن الحافلة معلنة نهاية الرحلة وبداية أخرى جديدة كدورة من دورات الحياة، تدع ركّابها على إناء الرصيف بقرف، يترجل مع المترجلين بصعوبة، يدفع بحربة كتفه لينفذ من بين أكتاف المهاجمين على باب الحافلة الراغبين في احتلال كرسي، يغادر ساحة المعركة سالمًا باستثناء بعض الكدمات. ليصطفّ بعدها على الرصيف المقابل مع مجموعة من الراغبين في السّباحة إلى الضفّة الأخرى من الشّارع كمهاجر غير شرعي قرّر المغامرة بحياته، يومئون برؤوسهم لبعض بالعزم الجمعي على العبور، يجدّفون بأقدامهم مهرولين وملوّحين بأيديهم للسيارات باستسلام من طيشهم وزماميرهم ليعبروا بسرعة للطّرف الآخر من الشارع خوفًا من سيارة لم تلتقطها كاميرا المرور.

اعتاد مصطفى هذا المشهد المتكرّر بتعب، اعتداد الازدحام واعتادت كتفه اللّطم بلا اعتذار، صبية متسوّلون يلتصقون بطرف ثوبه استجداء لقطع نقدية صغيرة منه، عيون المخبرين على بسطات الجوارب والكتب

والإكسسوارات، اعتاد مشاكل العاصمة وكل هفواتها، لكنه يستطيع القول الآن أن ثمة مشاكل أهم من الإزعاجات المرورية ومن شتم أمريكا وإسرائيل، هناك ما هو أهم بالنسبة له كالفقر وأزمة السكن والبطالة والأمن، ومن الممكن ذكر كثير من القضايا الّتي لم تثرها الأحزاب السياسية التّقليدية التي خيّمت لعقود تحت جناح السلطة، ولا حتى التيارات الثقافية والسياسية المعارضة التي برزت مع بداية الألفية.

***

مارس مصطفى بعد ترك القهوة أعمالًا عديدة، ما يميّزها أنها قصيرة وبراتب ضئيل، لم تكن لتؤمّن ربع احتياجاته اليومية، أجرة سكن، وطعام وعلبة تبغ، وحين وجد نفسه بلا مأوى تمكّن بفضل صديق قديم من قضاء ليله في مسجد الشيخ محي الدين بن عربي، في حي المهاجرين بدمشق، وذاك لقاء خدمات معينة، فسمحوا له بالنوم في مكتبة المسجد، إنها مكتبة رائعة، فيها كتب صوفية جميلة. كانت ستكون فكرة جيّدة من صديقه لولا أنه لم يختم معروفه له بعبارة (امكث بشكل مؤقت إلى أن تجد سكنًا).

إنه مسجد شعبي كبير، رائق وروحاني، كان حين ينتهي من تنظيف المراحيض وكنس المسجد ومسح الكراسي والأرضيات وتنظيف المكتبة، يقرأ بعض الكتب في الغرفة التي بها مقام الشيخ محي الدين، هناك لا أحد يردّد سوى الابتهال والدّعاء.

يأتيه كل محتاج ومظلوم يتضرّع لله طالبًا العون والمدد.

أمضى شهرين في هذا المكان، ورغم ذلك كان يرى أن هذا الوضع ليس حلًّا لمشكلته، وإن بقي على هذا النحو سيكون وجوده في هذه المدينة لا طائل منه وسينتهي به المطاف لصًّا أو ملتحفًا الرّصيف.

كانت تلك هواجسه في تلك الليالي المحيّرة. وفي إحدى تلك الليالي جلس وحيدًا يقرأ كتابًا صوفيًّا في حجرة مقام الشيخ ابن عربي، ولكثرة القراءة غطّ نائمًا بلا إرادة على وجعه بيأس، وفي الهزيع الأخير من الليل رأى في المنام "حسين" صديقه الموظّف في مديرية الشّؤون العقارية. في اليوم التالي قرّر الذهاب إليه، لعلّها إشارة من الله بالخير. كان الجوّ في منتصف آب، حارقًا ومغبرا، وقد سقطت الشّمس الملتهبة بوجهها المدعوك بدخان المصانع عامودية على هامة المدينة الدائخة وعلى رأسه، فانعكست على الزجاج المحجّر للمديرية. تردّد مصطفى في الدخول إليه بادئ الأمر، لكنه قسى على نفسه ومضى نحوه يخبره حاجته للمساعدة، فطلب منه حسين انتظاره خارج المبنى. بقي مصطفى منزرعًا تحت أشعّة الشّمس في انتظاره حتى فُتحت الأبواب معلنة نهاية الدّوام. تفاجأ حسين حين رآه لازال في مكانه، ظنّ أنه غادر المكان، في الطّريق أخبره ما حلّ به، فقام بلطف بالسّماح له بالسكن في منزله الّذي يستأجره. وبعد عدّة أيام قام بتأمين عمل له في أحد المطاعم من خلال أحد معارفه ممّن يعمل كرسونًا. لكن تلك الفرحة لم تدم طويلًا مع مصطفى، والأسباب كانت مختلفة، بل لنقل الأسباب كانت نفسها لأي شاب في العاصمة ألا وهي "الأزمة السياسية" في البلاد.

ففي السّنوات التي سبقت الحرب ظهرت في الأحياء الريفية الفقيرة في البلاد طبقة متوسّطة جديدة، متعلّمة وتتّسم بالنزق حيال قرارات الحكومة فيما يتعلق بنمط معيشتها، فأخذت تلك الفئات تنتقد عمل الحكومة في التعاطي

مع قضايا تلك الأحياء، و منذ ذاك الحين بدأت ملامح جيل جديد تتشكل، لم تكن تعلم السلطة حينها أن تلك الطبقة ستتحول للعنة تحل على جميع مفاصلها فيما بعد، والتي انفجرت بشكل فعلي في العام 2011 حين تمردت تلك الفئات عليها، معلنة الحرب في الأرياف وعلى أطراف المدن وهي آخر ما كان يتوقّعه الجميع حتى المتمرّدين أنفسهم، الأمر الذي أدّى لارتفاع تكاليف المعيشة وتخبط الاقتصاد في العاصمة.

بالنسبة لمصطفى لم تكن لتعنيه تلك الأزمات السياسية، ما أراده هو ألّا يبقى عاطلًا عن العمل، فالبطالة آفة الآفات. فأكثر المتشائمين لم يكن ليعتقد حينها أن تمرّدًا في الجنوب سيغرق البلاد في الدم والنشح إلى هذا الحدّ.

لهذا وحتّى يخفف مصطفى وحسين من أجرة سكنهما التي لم يعودا يحتملانها قام حسين باستقدام طالبين جامعيين للسّكن معهما، كانا صديقان لحسين من الرّيف، وأن الصديق الريفي بالنسبة للريفي ثقة أكثر من ابن المدينة، ليس للأمر علاقة بالعنصرية لكنّه قانون يسلكه الريفيون في هذه البلاد بالفطرة.

وفي هذا قال مصطفى وفي قلبه غصّة:

-كان الشابان طيبين جدًّا معي، رغم أنّي كنت من النادر أن أجلس معهما أكثر من ساعة أو اثنتين، وذلك بحكم طبيعة شغلي كالبغل في ورديتي عمل

في أحد المطاعم في حي المرجة بدمشق. مع ذلك سارت الأمور بهدوء إلى أن تبيّن لدي في أحد الأيام أن أحدًا ما سرق ما في محفظتي من نقود، قلت في سرّي لربما أضعت المال في الميكرو أو في العمل مع أنّي كنت على قناعة أني فقدت مالي في المنزل وأنه حادث سرقة. لكن وبعد عدّة أيام فقدت مبلغًا آخر هو كلّ ما كنت أمتلكه، بالنسبة لي كان من السيئ أن أشير لشركائي في السكن بأصابع الاتهام، لهذا لجأت إلى صديقي حسين، لكنه بدل أن يساعدني قال لي برزانة غير معهودة (إن بعض الظّنّ إثم .. من غير اللّائق أن تتهم الأصدقاء)، قالها وهو يشير بسبابته في وجهي كحكمة أبوية قديمة، خجلت من نفسي لشكوكي السيئة تلك، ثم استدنت منه أجرة الطريق واتجهت للعمل نادمًا لصنيعي. في اليوم التالي حدثت المعجزة، أو ما اعتقدت أنه معجزة. كان أن استيقظت على صراخ حسين، حيث وقف ينوح و يوزع اتّهاماته جزافًا على الجميع بسرقة ماله وهاتفه هو الآخر. حتّى أنه كال لي الاتهام أيضًا، من هول الصّدمة ضحكت بصدق يا صاحبي، استنفر المنزل وقام بتهديد الجميع بمنطق العصبية، وتكلّم بحقن كلامًا مقذعًا، أخذ شركاؤنا في السكن بالبحث عن مفقوداته بجدّ، قلت في سري لعلّ في الأمر خيرا وحين يجد أشياءه المسروقة سأجد مالي المنهوب... لهذا بحثنا في كلّ مكان وحين لم نجد شيئا دعانا صديقي المغدور للحلف على القرآن، وهو من أكثر الخيارات المرعبة التي يخشاها الريفي، حينها وقف أحدهما وقد انتابه الفزع من الأمر، ثمّ سأل صديقي القديم ببراءة: (هل بحثتم هناك؟) وقد أشار بإصبعه لثقب المدخنة، ثم تسلّق ومدّ يده في المدخنة وهو يقرأ

بعض الآيات القرآنية وبعض التعويذات، ثم فجأة أخرج الهاتف ومبلغ المال الخاص بحسين، مع أني أقسم أنّي رأيته يبحث في نفس المكان قبل دقائق. هدأت فورة حسين وهو يتفقّد هاتفه ونقوده، حملهما ثمّ اتّجه صامتًا إلى غرفته، لم يقل أيّ حرف، وعلى إثره تفرّق الجميع ليمارسوا نهارهم بشكل طبيعي دون أن يسأل أحد كيف وصل الهاتف وتلك الأموال للمدخنة، قلت بصوت خفيض (يا جماعة وأموالي؟)، لم يلتفتْ إليّ أحد، هل تتخيّل هذا!!. لحقت صديقي في غرفته لعلّه يساعدني بمهاراته في الحصول على أموالي المنهوبة، لكنّه قال لي برزانة (من غير اللائق أن نتّهم الأصدقاء). ليتني نحت مثله قبل أن يتملّكني التّعب والعجز لساعات وأنا أبحث في المدخنة عن أموالي المنهوبة.

شكوت ضعف حيلتي لصديقي الكرسون في العمل وهو صديق طيّب، مثقف ويجيد النصيحة، فاقترح عليّ السكن في غرفة تبديل ملابس العمّال لحين مساعدتي في إيجاد سكن بديل لي. كانت حجرة تبديل الملابس حجرة ضيّقة تقع فوق المطبخ، يوصل إليها درج قاسٍ، يليه دهليز ضيق بطول مترين. كانت حرارة الفرن والزيت المقلي والبخار المنبعثة من المطبخ تتسرّب إليها بانتظام ما جعلني أختبر شعور الدّجاجة المشوية طوال أسبوع. كما كان صوت جلخ السكاكين، وطشيش رقائق البطاطا واللحم المتبّل في الزيت، ونكات الطبّاخين غير المضحكة، وإزعاجات صبية الكوميك المتكررة بصعودهم بين حين وآخر لغرفة تبديل الملابس لمج السجائر بعيدًا عن

أعين صاحب العمل، كلّها كانت تنخر رأسي المتعب بلا إذن أو رحمة. ومع ذلك تحملت كل ذلك. لكن الأمور تدهورت بالنسبة لي حين أخذت إدارة المطعم تستغني مجدّدًا عن عدد كبير من العمال بسبب تفاقم الأوضاع الاقتصادية بفعل تطوّر الاحتجاجات وتسلّحها في الريف، فتمّ تخفيض أجرتي للنصف، وفي لحظة عصيبة طلبت من صاحب العمل أجرتي كاملة للبحث عن غرفة أقوم باستئجارها، لكنّه بدل ذلك قام بخصم جزء من راتبي لأسباب غير منطقية، ما دفعني للاحتجاج بحدّة، انفجرت أمامه مثل علبة غازية تمّ رجّها بقوة، الأمر الذي دفعني لأفجّر كل غضبي فلكمته على وجهه اللعين. ما هي إلا دقائق حتى قام بدعوة صبيانه لضربي، ومن ثم قاموا باحتجازي لحين قدوم الشّرطة، لقد أخبرهم أني قمت بشتم الحكومة وأنّني أطالب بإسقاط الحكومة. لقد مكثت نصف عام في الفرع بسبب مكيدة ابن الديوث صاحب العمل، كانت أيامًا مُرّة بحق... وحين خرجت من السجن بإصدار عفو رئاسي كنت مصمِّمًا على قتل صاحب المطعم، أقسمت أني إن خرجت من السّجن سأقتله بيديّ، لهذا ذهبت إلى المطعم لمواجهته. حين رآني استوقفني أمام واجهة المطعم، كان رجلا ضخما من الأمام صغير من الخلف، وله ساقان قصيرتان سريعتان وهي من سيماء البرجوازية المحلّية التي صعدت في البلاد خلال الألفية الجديدة. نظر إليّ بازدراء وقال بلهجة شامية (ماني شايفك .. أحّط)، أتعلم، جميلة هي اللّهجة الشامية حتى ولو كانت شتيمة تصدر من برجوازي بغيض. حين رأيته لا أدري لما تراجعت عن وعدي، لقد تذكّرت السجن، لربما سيعيدني إليه مرّة

أخرى، فهذه الحثالة من البشر تسيطر على البلاد ولا قدرة لي لمواجهتها يا أخي، لهذا جررت قدميّ و غادرت من أمامه كأحد حثالة البروليتاريا في هذا الوطن الجميل. بعدها عدت لعش الترك وفي نيتي مغادرة البلاد واللحاق بأهلي الّذين هربوا من الحرب واتّجهوا للأردن، لكن زعران عقيلة ضحكوا عليّ ورموني في هذه الزنزانة منذ قرابة أسبوع. يريدون مني المال وإلا لن يقوموا بإطلاق سراحي، أخبرتهم أن أهلي بالأردن ولا أملك وسيلة اتصال بهم لأخبرهم بذلك لكنّهم لا يصدقون روايتي.

12

قام الخاطفون بعد عشرة أيام على اعتقالي بنقلي من مكان احتجازي لمكان آخر، لقد تمّ تطميش عينيّ من جديد واقتيادي لمستودع قديم واسع وفارغ. تمّ إجلاسي على صندوق خضروات بلاستيكي، وقبل أن يقولوا حرفًا واحدًا قام أحدهم بسكب دلو ماء عليّ، وقام آخر بضربي بقوة على وجهي براحة يده حتى احمرّ وجهي من الألم. ثمّ سرعان ما شنقوا يديّ بحبل تمّ تعليقه بسقف المستودع القديم والرّطب. تركوني على هذه الحالة معلقًا لساعات طوال، حتى فقدت الشّعور بيديّ، صحت بتذاكٍ:

- سأعترف بكل شيء، هل يسمعني أحد، سأعترف؟

اقترب أحدهم نحوي، سألني بنبرة فيها فضول:

- تعترف بماذا؟

-بالجرم الذي تريدونني أن أعترف به

-وماذا فعلت لتعترف به؟

-لا شيء، إنّما حدّدوا أنتم التّهمة وأنا سأعترف على الفور أني فعلتها لكن لا تبقوني معلّقًا هكذا فقد تملّصت يداي.

ضحك ذاك الشابّ من قلبه، ثم غادر المكان وهو يضحك. بعد دقائق تهادت في الصّدى البعيد وقع خطوات متسارعة وأصوات ضحك تدنو منّي.

ما أن حطّوا في المكان حتى انبرى أحدهم يهدّدني بلهجة جنوبية حادة إن لم أفعل ما سيقوله سيقوم بدفني هنا. أخبرته أني سأفعل كل ما يريدونه. بقيت معلقًا حين تهاديت بين شابين ملثّمين مسلّحين. أزالوا الغطاء عن رأسي وقد عُلّق عمران وحازم بجانبي.

قام أحد الخاطفين بنصب كاميرا هاتفه أمامنا نحن الثلاثة، وقد التفّوا حولنا وقد غطّوا وجوههم وحملوا البنادق، ثمّ طلب الملثّم الواقف خلف الكاميرا من حازم أن يكرّر ما سيقوله:

- احفظ جيدًا ما سأقوله لك، لا أحبذ الأخطاء، حين أعدّ للثّلاثة قل التّالي: (يريدون قتلنا إن لم ندفع لهم المال، لقد قاموا بتعذيبنا وضربنا، أرجوكم نفّذوا ما يطلبون). هل فهمت، هل من داعٍ لأكرر ما قلته؟ وإلا أقسم بأختي أني سأقتلك هنا وأبول فوق جثتك إن لم تقل ما أقوله لك.

نفّذ حازم ما طلبه منه بالحرف، أغلق الخاطف كاميرته، وقاموا بتطميشنا مجدّدًا ومن ثمّ تمّ زجّنا جميعًا مع مصطفى في زنزانته من جديد.

في الزنزانة كنّا خائري القوى، سقطنا في نوم عميق، نمنا تلك الليلة كالصّرعى، وقد اعتنى بنا مصطفى جيّدًا، كان حازم متعبًا جدًا، وكان طوال الليل يصرخ في منامه كالمجنون (لا تقتلوني، أرجوكم لم أفعل شيئًا،

لا أريد الذّهاب) كان حسّاسًا جدّا، لقد تركت العملية في نفسه أثرها السيّئ. لكن في اليوم التالي تحسّنت حالته، أما أنا فقد بقيت يداي مخدّرتين لعدّة أيام.

حين شاهدنا مصطفى ثلاثتنا أمامه لم يقو على إخراس بهجته فصاح بسعادة:

-اكتمل الفريق، شكرًا يا ألله

سأله حازم:

- فريق الطرنيب؟

-بل.. فريق.. عازفو.. بريمن

نظر إلي عمران وقد استغرب طريقته في الحديث، قلت بمزاح:

- مصطفى الذي كنت تعرفه في صغرك ليس الّذي أمامك

ثم دوّرت سبابتي في الهواء وأردفت:

- يبدو أن الزنزانة أخذت نصيبها من عقله.

بعد مرور شهر وأربعة أيام فُتح باب الزنزانة، أخلي سبيلنا جميعًا باستثناء مصطفى، شعر مصطفى بالخوف والحزن لذلك، ثم ودّعنا بوجه متهدّل، كلّما تذكرت وداعه يكاد قلبي يتقطّع عليه، لذا صاح من خلف الباب يغصّ بحزنه:

- لا تنسوا ما اتّفقنا عليه، سنلتقي في بريمن، لا تنسوني يا أصدقائي، الواحد والعشرون من آذار.

انقطع صوته ثم عاد من جديد:

- لا تنسوا أني موجود في هذا العالم ولي أحلام وأتألّم كباقي البشر.

ثم انقطع صوته، كان في صوته غصة وحرقة، فصاح عمران مطمئنًا مصطفى:

- سنلتقي يا رفيقي هناك، تقوّى بالصبر، وسأنتظرك إلى أن تأتي نقسم بالله على ذلك.

بالفعل تعاهدنا أن نلتقي في بريمن في ألمانيا، كنا صادقين في عهدنا وفي نيتنا الهجرة. ركبنا في سيارة نوع تايغر، وتمّ نقلنا لمكان مهجور، هناك تمّ رمينا مكبّلي الأيدي ومغمضي العينين، وفي الفلاة. قدم أبو لؤي على دراجته النارية، علمت أنّه لن يتركنا بمفردنا.

١٣

بعد شهرين

عش الترك – الغربية

كان قرار الرّحيل هذه المرة مؤلمًا، كنت مجبرًا على ذلك بمفردي، مصلوبًا أمام مصيرين، الرّضا أو عدم الرّضا، الاستمرار في النكسات أو الرحيل مع كلّ خيباته. سقط رأسي بين هذين الخيارين كبناء قديم وسط كرتي هدم. الكلّ هنا في تلك الأيام كان مجبرًا لهذا السّقوط، فالعنف في كلّ مكان، يتضخّم ويتمدّد كلّ يوم مثل سعر الدولار ويسري في أرواحنا كلّ يوم امتهان من الكرامة والفساد والابتزاز الّذي جعل الجميع يؤمن أنّه من النّادر أن تجد سوريًّا رقيق القلب، لهذا من غير المألوف أن يمضي عمر أحدنا هنا دون أن يتلوّث في الخيبات.

في الشّارع في صباح هذا اليوم عند سوكة "أبو عرب المكنسيان"، تعارك أمامي صبيّان بلسانهما، سبّ أحدهما أب الآخر فسُبّ أبوه، سب أمه فسُبت أمه، ثمّ تدافعا بالضّرب، وهكذا. أما أنا فلم أفعل شيئًا حيالهما، ولن أفعل، شحذت ساقيّ ومضيت في طريقي، فهذا العنف الكيميائي لن يتوقّف يومًا، ولا أرغب في فعل شيء لإيقافه. لست من النوع الذي إن دخل عراكًا يخرج منه منتصرًا، حتى لو كان بنيّة الفصل بين الخصمين.

أدرت ظهري وقرّرت الابتعاد، هذا المشهد المكرّر بات يمقتني. تبعني أحدهم، عجوز في الستّين، أخبرتني لهجته الغريبة أنه نازح وليس من هذه البلدة، قال برجاء فيه خوف:

- أرجوك يا شيخ ساعد ابني كي لا يؤذيه صبيان أبو حمزة وأولاد عقيلة.

قال لي يا شيخ، تحسستْ يدي الراجفة وجهي حين سمعت تلك الكلمات، لقد نما الشّعر على لحيتي، حملقت في الأرض بتعب، يا إلهي جعبة على صدري، سروال صحراوي مموّه. تذكّرت ما قاله حازم حين التقيته في العزبة (إنّها عدّة الثّورة، عدّة المرحلة، إكسسوارات لتبقى حيًّا بين كلّ هذه الضباع).

عاد العجوز يكرّر رجاءه، كلّ شيء بات يسري حولي ببطء، لم أنا؟ ولمن؟ صبيان أبو حمزة ؟ وأولاد عقيلة؟ هناك شيء خطأ، كنت أرغب في أن أسأله كلّ هذه الأسئلة، لم من بين الجميع جاء يطلب مؤازرتي؟ لكنّني لم أقوَ على

ذلك، شعرت بوجعٍ في رأسي وأنا أراقب فمه المتهدّل وهو يرجو ويرجو، ويشير لي بإصبعه إلى ابنه الّذي تكتّل حوله عدة صبيان مسلحون.

تسمّرت في مكاني ولم أفعل شيئًا، تركني وأسرع العجوز لينقذ ولده بعد محاولة يائسة من رجائي، حاول سحبهم من فوقه وهم يركلونه بأرجلهم وبأعقاب البنادق، لكزه أحدهم بكوع يده فسقط على الأرض مغدورًا من قواه، لم يتحرّك أحد نحوه، لم نصنع شيئًا حيالهما. الكلّ أكمل أعماله وهو يعضّ على خرقة بالية.

في وجوه الجميع تلبّد التّعب والقهر، فهذه الحياة بالنّسبة لنا باتت فرضا من فروض المعاناة، كلّ شيء بها ليس جيّدًا كفاية، إنها خليط من الرّغبة والكذب، لهذا بات الجميع يمارس التّغابي واليتم عن سابق إصرار لاعتقادهم أنّهم بذلك سينجون من حرب أشعلها صبيان خصيان، لأن من يمشي الحيط الحيط تفضحه السّلطة يا إخوتي أو يكون ضحيّة لشرع الغوغاء والمعارضين.

كنت ضحية لمثل هذه الحوادث كثيرًا خلال سنوات الحرب، لكن حادث اليوم كان له طعم المرارة والخوف، أذكر في ذات حصار أن تعارك شابان في عش الترك الشرقية على ربطة الخبز الأخيرة في الدكان، سبّ الأول أمّ الثاني فسب الثاني دين الآخر، عندها لم يكن من الجيّد بالنسبة لي الوقوف على الحياد لأن هناك أمورا من الواجب علينا أن نقول لها (يكفي)، فتهمة ك

"سبّ الذات الإلهية" من الممكن أن تودي بحياة أحدهما على الأقل مقطوع الرأس من قبل الفصيل الإسلامي الذي يحكم هذا الجزء من القرية.

أذكر جيّدًا أنّي بفعل ذلك نمت أربعة أيام بلياليها مضعضع الأطراف وعلى وجهي آثار حذاءيهما البلاستيكيين، ففي بلدتي وبلا مبالغة (للحجّاز ثلثي القَتلة)، لهذا قلت في نفسي اليوم بلؤم (يفتح الله)، ففي سجلّي عشرات المعارك الخاسرة ولا خسارات بعد اليوم. هذا المجتمع يتقاتل حتى في نومه، فما بالي أنا وكوابيسه التي لا تنتهي، أكاد أجزم أنه إن لم يجد أحدنا من يقاتله سيقاتل نفسه.

دفعني ما مرّ به هذا العجوز وابنه اليوم لإعادة التّفكير من جديد بما قاله لي أبو لؤي ليلة أمس، لهذا كرّرت في نفسي (آن أوان الرّحيل بالفعل، عليّ أن أصل بريمن)، لكن كيف أرحل وعمران وحازم لم يرجعا من الشّرقية بعد. فبعيد إطلاق سراحنا من قبضة أولاد عقيلة عدنا للقرية واتّفقنا على الهجرة من جديد فرفض عمران أن يترك والدته ويرحل دونها، لهذا غادر إلى الشّرقية وقد قرّر حازم مرافقته، وقد فعلا ذلك سرًّا دون إبلاغي. ترك لي عمران مع أبو لؤي رسالة قصيرة يخبرني أنّ ذهابي معهم سيؤخِّر مهمّتهم وأنّ الهيئة الشّرعية هناك تكيل لي الاتّهام بمقتل أبو المغيرة، ما يعني أنّ ذهابي هناك هو مغامرة بحدّ ذاتها، لهذا قرّرت انتظارهما لحين عودتهما، وفي حال تأخّرا أكثر من شهر ولم يرجعا ينبغي عليّ الانطلاق ومغادرة القرية وحدي، لكن مضى شهران ولم يرجعا، يبدو أن أبو لؤي على حقّ، عليّ

الرّحيل، لربّما عمران وحازم لم يتمكّنا من العودة بنفس الطّريق إلى الشرقية فاتّخذا طريق السّويداء باتجاه الشّمال ومنه إلى تركيا فبريمن.

على حافّة الطريق وسط الناس الهائمين في المكان، بتّ أفكّر وأشغل هذا الرّأس التعب لقرار صائب.

ثلثي من تركوا هذه القرية الصّغيرة فكّروا بما أفكّر به اليوم قبل أن يهاجروا، في حين الثلث المتبقي له وجهة نظر مختلفة، فأنا أعرف أمثلة كثيرة عن أناس كثر هنا مارسوا الحقيقة والرضا كإحدى فصول اللّعنات.

رئيس بلديتنا السّابق مثلًا شخص جيّد لا أذكر أنّ له مثالب أو عيوب، ترك البلدة حين سيطرت المعارضة عليها وقرّر العمل في العاصمة، وحين لم يرق له ما فعلته الحكومة حين طرحت شعار (من أين لك هذا؟) لتخفيف الضّغط الشّعبي عليها من تهم الفساد التي وصلت لمستويات عالمية وغير مقبولة، حينها حمل حقيبته وهاجر، لربما معه حق، ما أن تولد حكومة جديدة في بلادنا حتّى تمارس شفافيتها على الموظّف الصّغير فتشير إليه بأصابعها السّمينة وتسأله بقسوة: "من أين لك هذا؟". تمنّيت كمواطن معدم أن تسألني الحكومة يومًا: "من أين ليس لك كلّ هذا؟". لكن لا أجوبة على هذه الأسئلة المفتوحة.

أمامي على الرصيف المقابل دكّان سعاد للخياطة، كانت فتاة لطيفة في حيّنا، صرفت سنين طوال من حياتها في خياطة جيوب أبناء البلدة وترقيع

سراويلهم المهترئة، حتّى بات يطلق عليها اسم (أم إبرة)، لم يتزوّجها أحد، لا أحد سيحبّ فتاة تعمل في خياطة الملابس، هي تقول ذلك، خطبها عجوز خرف، تمنّت في ليلة زواجها أن يتحوّل هذا الضفدع الكهل الذي سيتزوجها يومًا ما لأمير، كما في الأساطير، لكن مرّت الأيام وبقي الضفدع ضفدعًا ولم يتغيّر. وحين أدركت ذلك تركته وهربت لألمانيا، هناك تزوجت شابّا يكبرها ببضع سنوات فقط.

ليست هي فقط، جارها صاحب بسطة الجوارب أيضامن الهاربين من هذا الحي الصغير ممن يملكون عقد قديمة، أذكر قبل رحيله كان يروّج في الحي عن أسباب رغبته في الرحيل، ورغم أن غصّة كانت تعلق في حلقومه، إلّا أنه كان يتكلم مثل "شوبنهور". فقد كان يحدّثني عن زوجته التي لم تكن تنق، عن ابنه الذي لم يهرب أو ينخرط مع داعش كما فعل أغلب الصبية هنا، عن أبيه الذي لم يمت بشظية، وأمّه التي لم تنتظر أحد أبنائها المفقودين.

كلّ ما قاله لي:

- أترى هذا الندب هنا، هنا نعم في الجبين، حين كنت طفلًا خرجت ألعب فنطحتني البقرة ونمت في الجابية ليلة كاملة مغمًا عليّ، وفي اليوم التالي حين استيقظت عدت مترنّحًا للمنزل، لم يسألني أحد أين نمت، أو لِمَ جبينك مهشمة. كيف لك أن تتخيّل أنّ مستقبلي سيكون أفضل هنا، كيف لك أن تتخيّل شكل مستقبل أبنائي هنا، أنا راغب في الرّحيل.

أكاد أجزم أنّهم أدركوا قبل رحيلهم ما ينازع روحي الآن من رغبة بالقول أن من يرضى يعيش، لكن من لم يرض عاش أفضل.

الفصل الثالث

ذي النون يغادر نينوى

١٤

مشفى في لامبيدوزا - جنوب إيطاليا

11 أكتوبر 2013

صوت المذيع ذو اللّهجة الإيطالية الفينيسية المنتشر من خلال تلفاز وسط غرفة الإنعاش الّتي وجدت نفسي بها بلا وعي دفعني لجعل عينيّ المغلقتين نصف مغمضتين، لستُ واعيًا لما حلّ بي، الضّجيج حولي فقط يوخز الذّاكرة، ينشّط الألم ويوتر حال هذا الجسد السّكران الممدّد والمنهك كما لو كان مربوطًا بأسفين بقاعدة السّرير في المشفى.

بقايا طعم الملح المترسّبة في فمي تعيدني للبحر، حيث صوت الرّصاص وصرخات التوسّل الّتي تلج في عرض المياه الدّولية من كلّ صوب مغاضبة ونائحة، فتوتر أنفاسي الصّاعدة والهابطة على منفسة الأكسجين.

كلّ شيء في رأسي الثّقيل مشوش، حركة الممرضين أمامي، وعدة شبان مهاجرين يقفون يراقبون بعيون شاخصة الأخبار أمام شاشة التّلفاز.

أحدهم بلهجة ليبية شرقية أعرفها، فهي تشبه في لكنتها ما نتحدث به في جنوب سوريا، يردّد وراء المذيع:

- وكالة الأنباء الإيطالية الرّسمية "أنسا"، نقلا عن مصادر في البحرية الإيطالية... شاهدت... مهاجرين، بل جثث طافية قبالة جزيرة بل ساحل جزيرة لامبيدوزا بعد غرق قارب كان على متنه مجموعة من المهاجرين غير الرّسميين ب من من إن هذا المذيع سريع يا جماعة لا أستطيع ترجمة كل ما يقوله.

دنا الطبيب منهم وحاول تهدئتهم، ثم أكمل لهم ترجمة ما يقوله المذيع:

- غرق قارب كان على متنه مجموعة من المهاجرين غير الشرعيّين بالقرب من سواحل الجزيرة الإيطالية الجنوبية. وقال متحدث باسم البحرية الإيطالية اليوم الجمعة 11 أكتوبر 2013 إن قارب مهاجرين انقلب بين صقلية وتونس وأن حوالي 200 شخص موجودون في عرض البحر الآن. وأضاف أنّ سفن البحرية الإيطالية وطائرات الهليكوبتر تقدم المساعدة في الموقع.

انتهى الطبيب من ترجمته عاجزًا عن قول شيء آخر، حينها صفّق شاب آخر يدًا بيد:

- فقط ؟! هذا كلّ ما قاله؟ وأولادي أين هم؟

ثمّ انهار باكيًا، قام رفيقه بضمّه بأسى. في تلك الأثناء فاجأ إحدى الممرضات نصف صحوي من الغيبوبة، أسرعت إلي، وما أن اقتربت لمعاينتي حتّى انزلقت خصلات شعرها الصحّي قرب وجهي حتّى كشف الضوء اللّبني المتسلّل من نافذة الغرفة مقاييس الجمال الإيطالي لتلك الممرضة. بالفعل إنها كما وصفها لي مصطفى حين أخبرته في السجن أني أرغب في زيارة روما ذات يوم، تنهّد حينها وقال بدناءة (إن لنسوة إيطاليا قدرة هائلة على امتلاك جسم رشيق في وقت يمكنهن فيه الاستمتاع بطعم الباستا والريزوتو والتيراميسيو من دون كسب أي كيلو غرامات إضافية، على عكس نسوتنا ذوات الجسد المربرب)، إنه على صواب فهذه الممرضة الرشيقة بدت لطيفة وهي تتحدّث بالإيطالية الناعمة مع الطبيب الذي وقف إلى يسار سريري محاولًا مساعدتي للتعافي من غيبوبتي.

سألني الطّبيب الذي كان يتحدّث العربية العراقيّة بعناية:

- أتسمعني...؟ حرّك يدك إن كنت تسمعني؟

لكن أسرني التعب مرّة أخرى، فأطبقت عيناي مسرعتان، وصوت نابض القلب يعيدني مرّة أخرى إلى تعلقي بجثة طافية في عرض البحر، مرّة أخرى أكسّر بيديّ الراجفتين أمواج البحر المرعبة، مرّة أخرى يباغتني صوت الطّبيب:

- ما اسمك؟

يغيب صوته مجدّدًا ليكرّر للمرّة الثالثة:

- ألديك عائلة وأصدقاء؟.. لا تقلق أنت الآن آمن معنا، لكن هل لديك عائلة أو أصدقاء؟

آمن إنّها كلمة لا يكرّرها على مسمعنا سوى أولئك الذين يروننا غرقى، أولئك الّذين يجدونك دومًا على حافة الهاوية وعلى حدود الانكسار، أنا أعي ما تعنيه تلك الكلمة جيّدًا، جميعنا جنوب قوس البحر وشرقه ممّن كنّا ولا زلنا نموت كلّ يوم من الجوع والتطرّف والمرض والاستبداد، جميعنا نعي ماذا يعني أن يقول لك الآخرون "أنت آمن". لطالما كانت حكومات بلادنا كلّما مرّت بهزيمة أو نكسة تخرج عبر وسائل الإعلام ببذّة وبوط عسكري، تلعق المايكروفونات ثمّ تردّد بكذب "عزيزي المواطن أنت آمن".

أذكر حين تمّ اختطافي من قبل أولاد عقيلة قال لي زعيم العصابة وهو يلكزني بعقب بندقيته على رأسي "إن أرسل ذووك المال دون مشاكل سيتم تأمينك لمنزلك"، وحين خرجت وهربت جذفني المهرب مع ثمان وعشرين هاربًا من الحرب عند حدود بلد جار ثمّ طلب منا أن نجتاز طريقا مليئا بالألغام، قال بهدوء المستكين "حين تجتازون هذا الساتر ومن بعده الشريط الحدودي سيوصلكم الطريق إلى بيروت عندها ستكونون آمنين"، لكننا بدل ذلك وجدنا الطريق أمامنا مفتوحا على الخيبة والمجهول، تركنا المهرب وسط الطريق وهرب، فانقسمنا لأربع مجموعات ومشت كلّ مجموعة في

طريق مختلفة، إحدى المجموعات تعرّضت لإطلاق نار مباشر من قبل حرس الحدود، أصيب بعضهم وتمّ اعتقال آخرين، في حين تمكّنت مع مجموعتي من أن أكون آمنًا لحين.

١٥

إلى الوراء قليلًا

كان الطريق من السّودان إلى ليبيا طويلًا، شاقًا ومتعبًا (على عكس الطريق من بيروت للخرطوم) لكنّه لم يكن ليكون كذلك لولا أنّني اتّخذت الطّريق الصحراوي أو ما يسمّيه المهاجرون طريق الموت للوصول لسواحل ليبيا، أنا ممّن فضّل سلك هذا الطريق منذ البداية لذا يجدر بي عدم التذمّر ولوم نفسي أو الآخرين، أو حتّى النّميمة على المهرب الّذي قطع بنا كلّ هذه المسافة لأنّه كان واضحًا منذ البداية.

فالمهرب هو رجل سوداني فوق الأربعين، يلبس وجهًا متحجّرًا مليئًا بالثّقوب ويرتدي نظّارات شمسيّة على الدّوام، ما جعلني أُخمّن طوال معرفتي له ما شكل عينيه، كما أنّه ذو لحية مستدقّة ووجه يشبه وجه غوريلا، ويطلق على نفسه اسم النفيدي، وهذا جلّ ما أعرفه عنه، حصلت على رقمه من قبل صديق قديم قام بالهجرة إلى أوروبا عبر السّودان قبل مدّة، قال لي إنه رجل جيّد ومرح، لكنّه لم يقل أنه كان شديد الحيطة والحذر، لربما لا ينبغي لأحد أن يسأل السّوداني عن حذره فهذا الحذر على ما يبدو سجيّة هؤلاء الناس من العرب.

إذ بدّل موعده معي ومكان اللّقاء أكثر من مرّة حتّى يطمئن لي، وفي النّهاية كان لابدّ من أن نلتقي، فبعد أسبوع تمكنّا من ترتيب موعد فيما بيننا في بهو أحد الفنادق الرّخيصة وسط الخرطوم.

في الفندق اعتقدت أنّي الوحيد الّذي سيقابله، لكنّني لم أكن أوّل الواصلين، كان هناك شابان كرديان هربا من حي ركن الدّين في دمشق، كانا ينتظران النفيدي. كان مشعل قلقًا وغير مرتاح، لم يفصح عن رأيه أبدًا، بدا لي أنّه في الخامسة والثّلاثين على أغلب تقدير، ذو نظرات كسولة ومنكسرة، لكنّه يملك وجها أشقرَ حلوًا، وزنه البالغ 215 رطلًا كفيلٌ ليؤرق رحلته تلك، فما إن قال النفيدي "سنأخذ بالأسباب وسأضمن لكم جودة الحافلات التي ستقوم بشحنكم. لكن الصّحراء كما البحر لا يؤمن جانبه" حتى تهدل وجهه اللّحيم، ولاحظ الجميع أنه أخذ يفكّر بما سيفعله في حال تعطّلت السيارة في عرض الصحراء.

نظر النفيدي إلينا نظرة بائسة من تحت نظّارتيه، غمغم... وهو يقرّب علبة عيران على الطّاولة نحوه، سكب كأسًا ثمّ قام بكرعه دفعة واحدة، تعرّت أسنانه كمن يتجرّع دواء مرًّا، تسايل العيران على شدقيه وعلق بعضًا منه على شاربيه، وضع الكأس من يده، تجشّأ بصوت عالٍ عدّة مرات، جسّ بيده بطنه المنتفخ، حتّى كادت أزرار قميصه تنقلع من مكانها، قال مبرّرًا فعله:

-إنّه تشنّج القولون، كم هو لعين.

تململ في جلسته ثمّ قام بطرح خياراته كمن يقرأ حيرتنا:

-أرى في وجوهكم خرابًا قديمًا.

ضحك برفق، ثمّ دكّ بيده علبة العيران الفارغة شاقوليًا، وأكمل كشخص دعّكته السّنون:

-لن يذهب من عمر أحدكم يومٌ إلّا ما كان مقطوعًا منه النّصيب، وحين تفرغ كأسكم من الماء لن تفعلوا لأجلها شيئًا، من ماتوا نفد ماؤهم، هذا ما أفهمه.

اعتدل في جلسته على كرسيّه ثمّ تنهّد:

- وضعت أمامكم خيار السّفر عبر الصّحراء لأنّه أقلّ كلفة بمثل النّصف عن خيار السّفر جوًّا، فجميع الإخوة السّوريين -فرّج الله كربكم- يفضّلون الطّريق الصّحراوي لأنّه سيوفّر عليهم الكثير في رحلتهم الطّويلة.

سأل هافال وهو الشّابّ الكُردي الآخر، ثلاثيني، متوسط القدّ ويرتدي قميصًا نصف كُمّ ظهرت من خلاله عضلات ساعديه المشدودتان فبدا كغزال ممشوق القوام:

-وما هي كلفة السّفر عبر الطّائرة؟

-ثلاثة آلاف دولار أمريكي.

استوضح هافال:

-للعائلة الواحدة؟

ابتسم النفيدي:

-بل للشّخص الواحد، وكلّ نفر من عائلتك عليه أن يدفع ثلاثة آلاف أيضًا

أجابه مشعل بصدمة:

-وإن كان هناك شخص لديه زوجة وأطفال ماذا سيحلّ به؟!

أجابه النفيدي بازدراء:

-يرجع إلى سوريا. لا أعرف لما تتقاتلون هناك على سوريا، لما تتقاتلون على شيء ليس موجودًا أصلًا، ليس لكم، كلّ ما هناك أنّها قطعة أرض مغمورة بالمياه جفّت وأقيمت عليها دولة.

أحسّ أنّه كان قاسيًا في جوابه فغيّر من أسلوبه:

-أعلم أنّ ذلك مكلّف، لكن لديّ وسطاء في هذه العمليّة وإلّا لكنت ساعدتكم، من الممكن تخفيض السّعر للنّصف لكلّ نفر من عائلاتكم إن كان عمره أقلّ من ثماني عشرة عامًا، سيترتّب على ذلك دفع ألف وخمسمائة دولار فقط، هذا ما أستطيع فعله لمساعدتكم.

ردّ عليه مشعل:

-إنّه مبلغ ضخم يا رجل.

كان لديّ من المال ما يكفيني للوصول لإيطاليا، فقد قامت أمّي بإرسال المال لي بعد إطلاق سراحي من الاختطاف عبر ابن عمّي، حتّى لو لم يقل لي ابن عمّي أن المال من أمّي فأنا أعرف أنّه منها، فقلب الأم لا يقسو على أبنائها.

هنا دفعني الفضول للاستفسار:

-وماذا عن الطّريق البرّي؟

أجاب النفيدي:

-أضمن لكم جودة السيّارة وأن تصلوا آمنين لليبيا، لكن لا أضمن لكم قطّاع الطّرق.

تململنا ثلاثتنا لسماع ذلك، ابتسم هافال ثمّ تحدّث بالكرديّة لمشعل، اكتفى مشعل بالابتسامة، كانت ابتسامة مرّة كمن سمع نكتة لم تعجبه، أنا لا أجيد الكردية ولا حتّى النفيدي. سأل هافال:

- وهل هناك قطّاع طرق؟

-لا يخلو الأمر من وجود متمرّدين يقطعون طرق المهاجرين، إنّهم لم يقتلوا أحدًا حتّى الآن منذ بدأت هذا العمل، إنّما يقومون بالنّهب فقط. أنا أضع أمامكم جميع الخيارات وهي محتملة بنسبة واحد بالمائة، عادتي أن أشرح للمسافر جميع تفاصيل الطّريق ليكون على نور وعلى بيّنة، لكن لتكونوا على اطمئنان في حال أردتم العبور برًّا، لم يحدث أبدًا أن اعترض طريق عملائي أحد. إنّهم سائقون مهرة، يحفظون الطّرق جيّدًا، لقد قمت بتهريب عائلات على عدد شعر رأسي هذا لا تقلقوا حيال الطّريق.

قال مشعل وهو يتصعّد:

-قلبي غير مرتاح.

هنا استطردت بشيء من حدّة:

-ما أعلمه ممّن سلكوا الطّريق الصحراوي أنّه ليس مضمونًا يا سيدي، أعرف أشخاصًا كثر اتّخذوا نفس المسار، والكثير منهم لم يصلوا إلى وجهتهم وفقد الاتّصال بهم بعد يوم وبعضهم بعد ساعات من سفرهم.

كان بال النفيدي طويلًا، صبور ولم تزعجه استفساراتنا المكرّرة:

-هذا حين يلجأ الشخص للمهرب الخطأ. بالفعل إن بعضهم يموت من العطش وبعضهم من الجوع، عبور الصحراء ليس كلمة عادية تجمد على الفم، خصوصًا في مرحلة المشي سيرًا على الأقدام في هذه الأيام الحارقة،

فهي مسافة طويلة ولا يستطيع الجميع الصّمود فيها، لكن أنا لم أقل أنّكم ستذهبون سيرًا على الأقدام، المسافة الّتي ستقطعونها سيرًا لا تقدّر ببضعة كيلو مترات، وأحيانًا أمتار وذلك حسب المعطيات، وهي نادرة الخطورة، وسأصدقكم القول إنّه طريق جديد، ولا أريد الإفصاح عنه أكثر كي لا يتمّ حرقه. هناك ناشطون ليبيّون قاموا بحرق الطّرق السّابقة، إذ قاموا بتصوير الطّرق ونشرها عبر مواقع التّواصل الاجتماعي عبر خاصّية الجي بي إس ما دعى الحكومة لإغلاقها.

سألته:

-إن كانت الطّرق القديمة خطرة لهذا الحدّ لما يسلكها المهاجرون؟

-لأن المبتل لا يخشى الماء، نحن نقول لهم ذلك قبل السّفر وهم يوافقون، كما ستفعلون أنتم.

كان في جوابه الكثير من الأنانية، أخفتها تلك الابتسامة اللّامكترثة والمهملة على طرف فمه.

تنهّد مشعل لسماعه، وتلوّى جسده الثّخين على كرسيّه بعدم ارتياح، أسقط وجهه بين يديه، بعد أن أسند كوع يديه على ركبتيه، وسأل النفيدي بضيق صدر.

-هل بالإمكان أن تشرح لنا تفاصيل الطّريق الصّحراوي أكثر؟

فأجابه بلباقة:

-أعلم أنّكم جئتم من بلد عزيز على كلّ سوداني وأنّ ما جرى ويجري الآن هناك كان مصابًا عليكم جميعًا، وأنا أدرك تمامًا أنّ الملسوع يخشى جرّ الحبل لذا أؤكّد لكم برأس أولادي أنّ الطّريق الصّحراوي ليس بذاك السّوء كما تتصوّرون. ليس كلّ ما يقال في الإعلام عليكم تصديقه. ستقلّكم السيارات من الخرطوم عبر الحدود المصرية ومنها إلى ليبيا عبر جبل عبد المالك شرقًا إلى منطقة السّرير مرورًا على منطقة الواحات وصولًا إلى منطقة أجدابيا والبريقة، ستكون هناك سيّارة تنتظركم داخل الحدود اللّيبية على بعد بضعة كيلومترات، لذا ستجتازون الحدود سيرًا لأن تصلوا إليها، وهي مسافة ليست ببعيدة، وفي ليبيا سيكون هناك حديث آخر، لدينا عملاء كثر هناك في حال أردتم إكمال رحلتكم معنا سنتّفق في حينها، أمّا الآن ستنتهي مهمّتي حين تصلون السّواحل اللّيبية. فكّروا ثمّ أعلموني بقراركم.

أمّا عن الطّريق الجوّي، وكي لا تصدعوا رأسي بالسّؤال عنه سيكون عبر مطار الخرطوم وسيتمّ منحكم جوازات سفر وستصلون خلال نصف ساعة لداخل الأراضي اللّيبية.

همّ بالوقوف، ثمّ قال في نية لإقفال الحديث:

-إن لم يصلني منكم ردّ غدًا سأعلم أنّ قلّة الردّ رد.

١٦

على الطّريق الصّحراوي إلى ليبيا

28 أغسطس 2013

في السّيارة التي كانت تقلّني لم أجد هافال ومشعل، إذ ركبا في سيارة أخرى، لكنّني تعرفت خلال الطّريق على عدّة أطبّاء سوريين قدموا مثلي هم وعائلاتهم من درعا منهم أيمن ورشاد ورسلان وإبراهيم، كانوا طيبين جدًا معي، وبدا لي منذ ركوب السيارة أن علاقة قديمة وحميمية قد جمعتهم.

كان أيمن لا يملك أولادًا، وكانت زوجته السيّدة عائشة سيّدة متديّنة وطيّبة غاية في الاحترام. في حين كان رشاد طبيب عظمية وله ثلاثة شبّان يافعين وصبيّة في الرابعة عشرة كانت تعرف كيف ترتدي حجابها بأناقة بالغة، كان إخوتها الذّكور كما لو كانوا توائم من حيث العمر والطّول والحجم، في حين ما كان يميّز الشابّ الصّغير ندبة صغيرة أسفل حنكه، إنهم عائلة هادئة وقلّ ما كنت أسمع حديثهم.

أما رسلان فقد حمل معه جميع أفراد عائلته، كان يمتلك طفلة صغيرة شقراء اسمها فريال يحتضنها أينما ذهب، ويطلق عليها اسم كونتيشا، إنّه

يحبّها عن باقي إخوتها الثلاثة. واحدة في الصفّ الأوّل والثانية في الثّالث والأخيرة في الرّابع و لم يكن يملك أولادًا ذكورًا. في حين أن إبراهيم طبيب نسائية في الخمسين، هزيل ويعاني من داء رئوي حاد، الأمر الذي جعل الرحلة بالنسبة له قاسية جدًا.

نكات الصّحاب والذكريات التي يعج بها الطريق كانت تطبع على الوجوه المنهكة ارتياحًا مؤقّتًا، كان الأزواج يكرّرون مزاحهم لتطمئنّ زوجاتهم وأطفالهم. في حين كان ينطبع على وجوه الرجال خوف كبير ممّا يخبّئه الطّريق. أمّا أنا فلا زوجة ولا طفل يدفعني للقلق، فالترقّب في هذا الطّريق المقطوع في هذا اليوم المقشر والدائخ يتعب الرّأس، يصدّع الدّماغ، ويدفع الأنفاس لتخرج متثاقلة وكئيبة والكلمات منرفزة ومتوتّرة.

بعد مرور حوالي العشر ساعات تهادت السيارة في مشيتها، اعتقدت أنّنا وصلنا فتنفّست الصُّعداء، مدّ رشاد رأسه من مشمع السّيّارة البلاستيكي ثمّ صاح على السائق:

-هل من مشكلة؟

في هذه اللحظة كانت عينا السّائق قد علقتا على طرف الطّريق، كان هناك شابان ملقان على الرّمال حين حوّل رشاد عينيه لمكان نظر السّائق، فتمتم :

-يا إلهي، ما هذا؟!

ثم قفز من السيارة بعد توقفها وركض باتجاه الشابان، صرخ السّائق:

-انتبه لعلّه كمين.

حين سمع ذلك رشاد سمّر ساقيه في الرّمال وتوقف يجول بناظريه المكان:

- لا يبدو ذلك

ترجّل السائق وقد أخرج بندقيته وقام بتلقيمها، ثم اقترب بحذر، جعلنا نبقى في السيارة لحين تأمين المكان، فلقطّاع الطّرق حيل كثيرة لإلقاء القبض على المهاجرين ونهبهم.

لكن لم يكن ما جرى اليوم حيلة ولا كمينا، لهذا سارعنا لمساعدة الشّابين. كان من العسير أن ننقذ الأوّل، إذ كانت الشّمس اللّاهبة والأيام المرّة قد سلقت عينيه الطافيتين وشربت ماء وجهه. فلقد رأيت خلال الحرب جثثا متفحمة كثيرة في سوريا، وشاركت في تطبيب الكثير منها رغم عدم خبرتي في مجال الطبّ، لكن لا أعرف أيّ حرب قتلت هذا الشاب.

بينما كانت عيناي تغسلان وجهه الأسمر المعفّر بالصحراء، مثل قطعة خبز أسمر غمست بالزيت والزّعتر، صاح رشاد طالبًا العون لنقل الشاب الآخر إلى السيارة، في حين قمت بدفن الميت على عجل مع بعض الشبان ممّن كانوا معنا في السيارة. وهناك قام الأطباء بفتح وريده وزراعة مغذٍّ له من علبة الإسعافات الأولية التي يحملها كلّ واحد منهم.

حين قرّرنا اجتياز الحدود اللّيبية كان ذاك الشّابّ لايزال بوضع سيّئ، لهذا قمنا بصنع سرير نقّال لحمله فيما بيننا مناوبة، فلم يكن من الجيّد تركه هكذا على الحدود لينال منه الموت. كان الطّريق طويلًا ومرهقًا، لكن فضل الله كان كبيرًا بأن لم يعترض طريقنا أحد.

في منزل الوسيط أو بما يعرف برجل الاتّصال وهو منزل بسيط في البريقة الليبية أخذت خطوط الحياة الحمراء تمشي في عروق هذا الشاب التشادي ذو السّبع عشرة ربيعًا. كان اسمه مادري، والّذي سرعان ما أخذ وجهه يتفتّح وتنظر وجنتيه، كان كلّما تحدّث كانت تتعرّى جهته الناتئة كصلعة صغيرة، في حين انحسار قُصّة شعره القصير والمعقوف للوراء تأخذ شكل ابتسامة عريضة.

يعود الفضل في تعافيه بسرعة للسيدة عائشة زوجة الدكتور أيمن، لقد سهرت على عنايته، فهي ليست طبيبة لكنها أم جيّدة وهذا يكفي لحالة كحالة مادري، كما أنّها سبّاحة ماهرة حملت عدّة ميداليات وحصدت عدة جوائز محلّية في السباحة.

اعتنت السّيدة عائشة بمادري كابن لها، كانت عائشة في منتصف الأربعين رقيقة ولطيفة جدًا. إنها كذلك مع الجميع، لهذا كنت أكنّ لها كلّ الودّ. كانت تذكّرنا بمواعيد الصّلاة بانتظام، وتعطف على الصّغار، وحين ترى وجوه الأفارقة الجافة تسيل دمعتها السخيّة بسرعة.

أحبّت كثيرًا مادري كما لو كان ابنًا لها، كانت تشعر حياله دومًا بالأمومة، الأمومة التي لم تختبرها يومًا. لهذا تجدها أكثر الأشخاص الذين ينصتون بود حين يسرد لنا قصته، فهو ينطق العربية بلكنة أفريقية جميلة تجعله قادرًا على إثارتنا في سرد تفاصيل ما حدث معه حين تاه في الصحراء، كان كل حين يضيف روح النكتة على تفاصيل الأحداث المرّة التي قطعها فيدفعنا للضّحك، إنه يجيد كيف يرشّ على الموت سكّرا.

غادر مدينته أبشي واجتاز حدود بلاده تشاد إلى السّودان بعد أن ترك موس كروندارى مغروزًا في صدر عمّه الّذي استولى على ميراث أبيه والمتمثّل بتسعين فدّانًا. بقي عامًا كاملًا في السّودان يعمل في البناء والزّراعة، عانى خلالها كما يقول صنوف العنصرية والتّمييز، في بلد جار وعدوّ لحكومته. وبعد اتّهامات لدعم الحكومة التّشادية لحركات التمرّد في دارفور السّودانية أخذت الحكومة السّودانية تضيّق الخناق على الأفارقة الأجانب في البلاد وفي مقدّمتهم التشاديون، لهذا اضطرّ مادري وتشاديون كثر لمغادرة السّودان.

أذكر حديثه جيدًا حين قال:

-في السّاعة الخامسة من صباح السّابع والعشرون من آب غادرت دارفور برفقة ٢٣ مهاجرًا على متن ستّ شاحنات تويوتا، كان بيننا سوريون، تعرّفت على أحدهم، عرفته من سيماه أنّه سوري، ومن طريقة كلامه، للأمانة أنا

أخلط بين اللّهجتين السورية واللبنانية اعتقدته في البداية لبنانيا، كنت أجد صعوبة في الحديث معه، يتكلّم بطريقة صعبة. قال لي إنه جاء هو وزوجته من "حيمص"، "حي مص" ألا تلفظ كذلك أم أنّي مخطئ؟

ضحك الجميع، فأخذ يهرش رأسه بيده متسائلًا:

-ألا تلفظ هكذا؟

ردّت عليه عائشة:

-اسمها حمص، مدينة وسط سوريا

-ليس مهمًا، طلبت ألّا يقاطعني أحد ماما عائشة، دعوني أكمل فقط، كانت الشّاحنات الملعونة تسير بسرعة هائلة ودون توقّف، وكما ترون فحجمي ضئيل دفعني لأختبر حياة صغير الكنغارو لاثنتي عشرة ساعة طوال الطريق الوعر في جيب تلك السيارة. لست معتادًا على ركوب السيّارات لمسافات بعيدة، أصبت بدوار يا أخوة حتى اعتقدت أني سأتقيّأ معدتي. لي حكايات كثيرة مع الدّوخة والإقياء، هل أحدّثكم عنها؟ أحدّثكم؟ ما بالكم تضحكون، عم أيمن ما بالك تضحك، وأنتِ ماما عائشة هل أحدّثك؟

ردّ عليه أيمن:

-لا تخرج عن الموضوع، أكمل.

-طيّب، كان معنا نسوة وأطفال. لحسن الحظّ كانت السيارة الّتي تقلّني ورفيقي تسير في المؤخّرة حين تمّت وعلى غفلة مطاردتنا من قبل مجموعة متمرّدة تمتهن قطع الطرق في غرب الصّحراء السودانية، تمكّنوا من إلقاء القبض على خمس سيارات في تلك الحادثة حين لاذت واحدة فقط في الفرار، لم يكن للسيارة التي تقلّنا أن تتوقّف لولا أنّهم أمطرونا بالرّصاص الحي وبشكل مباشر، كانت رصاصاتهم قاتلة أي والله، كما صوّبوا طلقاتهم على عجلة السيّارة، وحين تبيّن لهم أنّ سيارتنا قد تعطّلت ولن تقوى على متابعة السّفر، تابعوا اللّحاق بالعربات الأخرى. سائق شاحنتنا رجل فحل، قام بتبديل إطار السيارة مثل لمح البصر وانطلق وقد غيّر مسار الطريق.

-الحمد لله، أين بقية من كانوا معك في الشّاحنة، وماذا حلّ بالباقي؟

-دعيني أكمل ماما عائشة، لم تنتهي القصّة هنا، تغيير الطّريق لم يكن من مصلحتنا، لذا بتنا تلك اللّيلة في العراء كي لا نتيه عن الطّريق وكي لا تجذب أضواء السيّارة المندفعة مثل صنبور لبن قطّاع الطّرق، فهم كضباع جائعة لا ينامون بحثا عن طريدة. لكن لسوء الحظّ تمكّنوا من الإمساك بنا في اليوم التّالي، ولا أعلم على وجه الدّقّة إن كانوا هم نفس الأشخاص أم قطّاع طرق آخرين. فهذه البؤرة من العالم تغصّ بالتمرّد والفوضى وبقطّاع الطّرق. كانوا حوالي الثمانية أو يزيد، يحملون بنادق وقد تزنروا بحبل من الرّصاص واقتادونا إلى خلف تلّة، وأمرونا بالانبطاح أرضًا، كانوا يرتدون بزّات سوداء اللّون وعمامات، وقد كتبت عبارات عربية أسفل سروال

أحدهم لم أعرف قراءتها، فأنا لا أجيد القراءة، وحين رفعت رأسي لأرى وجهه كان مثل كلب الدوبرمان، لعنه الله قام بضربي وسط ظهري بعقب بندقيته لأنّي رفعت رأسي، هم يقومون بضرب كلّ شخص يرفع رأسه، نهبوا كلّ ما نملكه من نقود، قالوا لنا "إمّا المال أو نقتلكم".

قال إبراهيم متذمّرًا:

-لعنة الله عليهم.

ردّ عليه رسلان:

-الله المستعان على كلّ ظالم

نظرت عائشة إلى مادري نظرة كلّها حزن ثمّ سألته:

-وهل أطلقوا سراحكم؟

-قاموا بفصل بعض النّساء عنّا واقتادوهنّ خلف التلّة ولا أعرف ما حلّ بهنّ، كما قتلوا شابًا لا أعرفه لأنّه قام بالنّقش على ساعده بعض الوشوم، أطلقوا الرّصاص على يده ثمّ وضعوا رصاصة في رأسه. ثمّ أخذوا حقائبنا والماء الّذي بحوزتنا ورحلوا بسيارتنا، فاضطررنا للمسير على الأقدام تحت لهيب الشّمس لعدّة أيام، كان معنا ثلاث فتيات توسّلن إلينا لشرب بولنا لشدّة العطش، إحداهنّ لقيت حتفها، كانت هزيلة ومصابة بالرّبو، كما

قتلت الصّحراء في تلك الرّحلة أربعة من مجموعتنا، لم نتمكّن من دفن أحد. كلّ شخص يقول في نفسه اللّهم نفسي.

سأل إبراهيم:

-كيف قطعتم تلك المسافة ولم تتيهوا؟

-كنّا نقتفي أثر السيارة، صادفتنا بعض الشّاحنات الّتي تقلّ لاجئين، حين يعلم السّائق أننا لا نملك مالًا كان يرفض نقلنا معه، بعضهم يقول لنا ليس هناك من مساحة كافية في السيارة، والبعض يرفض الوقوف لنا بالأصل، إنهم أولاد زنى لا يعرفون طعم الانسانية... كان الرّكّاب عاجزين عن فعل شيء لنا أمام تصلّب السّائق، منحنا رجل عجوز بعض الماء، وقام شاب بإعطاء رفيقي سعيد قطعة نقدية بقيمة الخمسين دولارًا، لربما دفنت معه. تمكّنت الفتاتان من ركوب إحدى السيارات حين قام ثلاثة شبّان مصريين بالصّراخ على السّائق وتهديده إن لم يقلّهما سيلقون به في الصّحراء. لهذا اقترح صديقي سعيد رحمه الله أن نسير بمفردنا لأنّنا إن بقينا مع الجماعة لن نتمكّن من تأمين سيارة، لأنّ كل من سيرانا مع هذه الجموع لن يقوم بإقلالنا معه. مشينا ليومين على الأقدام، نفد الماء الّذي في حوزتنا، وحين استيأسنا من رحمة الله سقط سعيد و لم أستطع إنقاذه، إنّه شاب سوداني طيّب تعرّفت عليه حين كنت أعمل بالزراعة لدى رجل أعمال لبناني، كان هذا الرجل يقوم بزراعة مساحات كبيرة من الأرز في النيل الأزرق، كان الأمر

يغضب سعيد، أقصد ما كان يؤلمه كيف تحوّل الشباب السوداني إلى أجراء في بلادهم عند مستثمرين أجانب، رحمه الله.

لم تستطع عائشة إكمال حديثه المؤلم، فسحبت نفسها وخرجت، ثمّ تبعها زوجها أيمن، وكذلك زوجة رسلان ورشاد.

١٧

شاطئ مدينة الزوارة _ ليبيا

8 أكتوبر 2013

في مدينة الزوارة الليبية، مع المئات من الرّجال والنّساء والأطفال، قام المهرّبون باحتجازنا على الشّاطئ في منطقة مسورة في الهواء الطلق. كانت قرب محطة لتكرير النفط، وذلك لتجميعنا قبيل الانطلاق. أخذنا منطقة وسطًا للجلوس بها، هناك التقيت بهافال ومشعل اللّذين انضمّا إلينا.

أمّا عن مادري فقد قامت ماما عائشة وزوجها أيمن بدفع تكاليف الهجرة له، فهو لم يكن يمتلك ثمن طعامه.

في المكان كان المهاجرون يتوافدون أفواجًا متتابعة، كانت حالتهم تصعب على الكافر، مغبرون، متعبون ومعفرون بالرمال. مع اكتظاظ الجموع بدأ ضغط الناس يرتفع، و كان الحراس الليبيون في ذاك المكان سيّئون جدًّا، كان بينهم شاب ليبي من أرذل ما رأيت في حياتي، كانت أفعاله القذرة سببا لحدوث الكثير من المشاكل داخل مكان التجمّع. في البعيد أخذ الهرج والمرج

يعلو، اختلف بعض الشبان مع هذا الحارس القذر لسبب ما فقاموا بالتّصادم معه، وفي مكان آخر تصادم مجموعة شبّان مع أحد رجال الحراسة الآخرين فقاموا بفكّ بندقيته منه وضربه.

في حين جلست على الأرض وقد ضممت ركبتي بيديّ أراقب ما يجري من فوضى وصراخ. بقربنا، اتّخذت مجموعة جديدة من المهاجرين مكانًا للخلود والراحة، كانوا قد أمضوا أربعة أيام سيرًا على الأقدام في اجتياز صحراء ليبيا، حين وصلوا إلى المكان كانت قد تورّمت أقدامهم من المسير، بينهم كانت فتاة تبدو في التاسعة عشرة، سمراء وممتلئة الجسم، لم تكد تضع يدها على الأرض حتّى سقطت نائمة من التعب، اعتقدت أنّها قد ماتت، لكنّهم جميعًا غفوا في نوم عميق.

صاح عليّ رسلان حين كنت أراقب حال تلك الفتاة:

- هيه، يا بلد؟

كان دائمًا يناديني بهذا الاسم "بلد" أو "بلّود" لأنني من نفس محافظته في الجنوب، وهي كلمات يتداولها السّوريون في المهجر.

- نعم عمّي رسلان

- هل أعجبتك تلك السّمراء؟

احمرّ وجهي خجلًا:

-لا والله يا عمّي لكنّني اعتقدت أنها ميتة، لم تكن تتنفّس.

-كان الله في عون الجميع... صِح لمادري ودعانا نبني خيمتنا.

قمنا بتشكيل خيمة من البطانيات، قمنا بتشكيلها على شكل مربعين بلا سقف، كان سقفهن الهواء الطلق، استعنّا بأعواد من الخشب كانت لحطام يخت خشبي قديم وجعلناها أوتادًا.

اعتزلت النّسوة في قسم خاص بهنّ، في حين ترك الرّجال قسمهم وتحلّقنا نارًا قمنا بإشعالها لصنع الشاي. كانت السّماء صافية إلّا من قطع من الغيوم البيضاء النّاصعة الكبيرة، والنجوم حادة في لمعانها، و القمر شبه مكتمل ساطع وكبير، أبيض ولامع مثل بيضة ديناصور باتت تطفو شيئا فشيئا من بين قطع من الثّلج الآخذة في التمدّد والتباعد كصفائح التكتون.

كثر المزاح، ضحكنا لنكات إبراهيم، وكذلك لتذمّر مادري عن نسوة تشاد، بينما جلس مشعل صامتًا، غارقًا في تفكير عميق.

سأله رسلان:

-ما يشغلك عنّا أستاذ مشعل، عسى أن يكون خير؟

ردّ هافال مازحًا:

- البحر، ما يشغله هو البحر. يخشى أن يغرقه كرشه إن جرى لنا عارض في البحر.

ضربه مشعل بيده على رجله بمزاح.

ابتسم أيمن:

- تفاءل بالخير، إنّه شعور متبادل أخي مشعل، جميعنا يخشى البحر، إنّه واسع وعميق، أنا أخافه يا جماعة، لكنّني أتجالد أمام زوجتي، فأنا لا أجيد السِّباحة، اسألوني عن الطبّ وعن الجراحة سأجيبكم بثقة، أمّا البحر فلا تذكّروني به رجاءً.

دخلت ماما عائشة تحمل كؤوس الشّاي البلاستيكية الفارغة، قاطعت زوجها مباغتة ومازحة:

-بانت حقيقتك، دائمًا تفعل فعل عنتر أمامي في حديثك عن مغامراتك... لا عليك كما أنقذتني من الصّحراء سأنقذك من المتوسّط.

قال إبراهيم بإطراء:

-أنتِ تجيدين الغوص والسّباحة بمهارة، العترة علينا نحن العجزة.

-بك الخير أخي إبراهيم، قل لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا. عن إذنكم

ثمّ غادرت المكان.

قال رشاد مرتاحًا:

-والله يا جماعة بالنسبة لي لست قلقًا، إن حدث مكروه لا سمح الله فأنا جيّد في السباحة وكذلك الأمر بالنسبة لأولادي إنّهم يجيدون السّباحة.

في تلك الأثناء قمت بسكب الشّاي الساخن في الكؤوس، وطفت أوزّعه على الجميع.

تناول رشاد كأس شاي ثم سأل رسلان:

-ماذا عنك يا رسلان، لماذا لا نسمع صوتك؟

ردّ رسلان بمزاح:

-لا رجولة في البحر يا أخي

ضحك الجميع

أكمل رسلان:

-لا تقلق أنا أعرف السباحة لكن ليس كما يجب، لهذا أنا مطمئن أنني أحضرت بذّات نجاة لي ولبناتي... رجاءً لا تستبقوا الشرّ، أتمنّى ألا يحدث ما نخشاه. كنا نخشى الصّحراء وبفضل الله سارت الأمور بأفضل مما كنا نعتقد.

استقام مشعل، ثم سأل رسلان بفضول:

-هل لديك بذّة إضافية، لم يتسنّ لي البحث عن واحدة في السوق.

-للأسف يا صديقي.

تطلّع هافال نحو مشعل:

-لا تقلق سأحملك على ظهري.

نظر إبراهيم للجميع ثم قال:

-لا تخيفوا الرجل يا جماعة، لا عليك سيّد مشعل جميعهم يخشون البحر مثلك، لا داعي للقلق لقد قمنا باستئجار مركبٍ كبير بدل القارب المطاطي، كما أنّنا تعاملنا مع أفضل مهرّب في ليبيا، ولقد وعدنا أنه سيقوم بتأمين ستر النجاة لنا، كما لدينا جهاز ثريا وبوصلة، والأهم من كل ذلك إن حدث مكروه لا سمح الله سنقوم بالاتّصال بخفر السواحل الإيطالية فقد أعلنوا مؤخّرًا عن بدئهم خطة لإنقاذ السفن في البحر. لم كل هذا الفأل السيء، أنا أكثر شخص عليه أن يخاف فإن قام أحد بقذفي في حوض سباحة سأغرق في شبر ماء، فأنا مصاب بداء رئوي حاد، لذا توكّل على الله، فالحذر لا ينجي من القدر. أعتقد أنّ الجو أصبح مناسبًا عن اليومين الفائتين، وسيكون مناسبا طوال الأسبوع القادم من حيث سرعة الرياح واعتدال الحرارة وارتفاع الأمواج.

تفتّحت أسارير مشعل، ابتسم ابتسامة عريضة وصلت لحدود أذنيه، ثمّ استدار نحو هافال وضربه على رجله بمزاح:

-هذا الكلام الذي نحتاجه في الامتحان وليس الغرق والقرش يا داعر.

١٨

في صباح اليوم التالي استيقظت باكرًا، قمت بتأدية صلاة الفجر وأكملت قراءة القرآن قامت ماما عائشة بإعارته لي لقرابة الساعة، كانت الشمس قد أخذت بنشر نورها على كتل اللّحم المتكدسة في المكان، الجميع كان نائمًا على الأرض. كانت الفتاة السمراء لاتزال تغطّ في نوم عميق، فجأة وقف خلفي مادري يتمطّى:

-صباح الخير، أظنّها أعجبتك، إن السمراوات حارّات جدًا عليك أخذ الحيطة يا بارد.

رددت بتذمّر:

- أصبحنا وأصبح الملك لله.

ثم عاودت النظر إليها، أعتقد أنها عانت كثيرًا حتّى وصلت إلى هنا. في تلك الأثناء صاح أحد الحراس عبر مكبّر الصوت (سيتم تأجيل الانطلاق لصباح غد، هيّئوا أنفسكم). ففزع الجميع من نومهم لصوته العالي والمزعج.

تركت الجميع واتّجهت إلى الشاطئ بعد أن رشوت أحد الحرّاس للسّماح لي بالخروج، كان البحر فعلًا كبيرًا وأزرق، إنّه يتسع لنا جميعًا، يتسع لكل هارب من ويلاه. استلقيت على شاطئه. في السّماء حلّقت نوارس وطيور، بدت كنقاط سوداء، كما لو أن نملًا آسيويًا أسودَ انتشر في السّماء، أغمضت عينيّ وشريط الرّغوة المتكسرة على قدميّ يدعوني للعودة بذاكرتي إلى والدي وأمي وأختي وأصدقائي. تذكّرت عمران ومصطفى وحازم، ماذا حلّ بهم يا ترى، هل لازالوا أحياء؟ هل سنلتقي كما تعاهدنا على ذلك يومًا؟

عند مكان التجمّع اندفع صراخ تلك الفتاة الأفريقية يزعق بعنف على أحد الحرّاس، ثم انهالت على الحارس بالضّرب والشتيمة، دفعها الحارس بعيدًا عنه وتركها مغادرًا، وحين اقتربت من الشّاطئ قذفت بنفسها على رماله متعبة تراقب الأفق، لربّما إنّها مثلي ومثل كلّ هؤلاء المساكين ممن يشعرون بالحنين لأحبّائهم خلفهم.

أخذت تبكي، اقتربت نحوها، منحتها علبة ماء لتغسل وجهها وتشرب، تناولت الماء ثم استأذنتها في الجلوس. حاولت تهدئتها، وشيئًا فشيئًا أخبرتها باسمي ثمّ تلوت لها قصّتي لعلّها إن رأت مصاب غيرها تهون عليها مصيبتها، لكنّها بدل ذلك استمرّت ترقب البحر بلا اهتمام، وكأنها تقول لي إن قصّتك لعب أطفال أمام ما مررت به:

- ألا ترغبين في إخباري باسمك؟

- سينيت

- ماذا؟

- اسمي سينيت.

- لكنك تتحدثين العربية السّودانية.

-وأنا سودانية ما الغريب؟

-لا شيء، إنما يبدو اسمًا غريبًا

-إنه اسم نيجيري، نسبة إلى عجوز نيجيرية كان لها فضل على والدي، كان اسمها سينيت وقد عمل لديها والدي في شبابه، لازال يكنّ لها كلّ الاحترام، حتى أنه عاهدها أن يسمّي إحدى بناته على اسمها.

سكتت ثم أخذت ترسم بإصبعها دوائر صغيرة على رمل الشاطئ، بدت أنها تواري دموعها عن السقوط، رفعت رأسها وبأسى:

-لكم أشتاق إليه الآن.

ثم انفجرت باكية كطفل صغير، غرغرت جاهشة في البكاء، بكاء تتفلت له نياط القلوب، لم أفعل شيئا حيالها، حاولت مواساتها لكنني لم أفعل، يكفيني أنا الآخر بكاءً، كلّ ما فعلته أني بت أرقبها وهي تذرف دموعها السخيّة، وحين هدأت قلت لها في مواساة:

- سيتدبّر الله أمر الجميع.

التفتت إليّ وقد فغرت عينيها الواسعتين، ثم قالت مغاضبة وهي تزك على أسنانها البيضاء الجميلة كحبات أرز:

-سنوات طويلة وأنا أنتظر هذا التّدبير ولم يحدث شيء، لقد تعذّبت بما يكفي ولم يفعل الله شيئا

-جميعنا تعذّبنا هذه الحياة بقدر، لكلّ منّا نصيب من الحزن.

-ونصيبنا من الفرح؟ أين هو؟

-سيأتي، صدّقيني سيأتي

-ولما أصدّقك؟

-لأنّ الله يمنح كلّ واحد منا عذابه وفق سعة نفسه لا تزيد على ذلك ولا تنقص بقدر، إن الله يرى كلّ شيء، فلا تفسدي صبرك في الربع ساعة الأخيرة من المكافأة الّتي قد يعدّها الله لك.

-ومن قال ذلك.

-الأنبياء والصّالحون.

-إنّهم في بلاد الشّام فقط، الأنبياء لا ينزلون في أفريقيا لأن الله لا يسكن هناك.

-ربّما لأنكم لستم بحاجة لنبيّ، أنتم صالحون بالفطرة، فلا يبعث الله نبيّا إلى قوم إلا كانوا قوما ظالمين.

-ولهذا تهرب من الشام المباركة؟! بما أن لديك كلّ هذا الإيمان لم تغادر، لماذا تهرب من قدرك؟

-جميعنا يهرب من قدر الله إلى قدر الله... ما الإنسان يا سينيت؟ إنّه لا شيء، إنه مجرد أيام إن مضت مضى، لذا من الشّجاعة أن نحافظ على مبادئنا وعلى إيماننا فهو خبز حاراتنا ورأس مال ما نملكه.

في هذه الأثناء صاح طفل في العاشرة من بعيد انطلق خارج السور وهو يركض نحونا، وقف وهو يبكي:

-عمّتي سينيت، عمّتي سينيت إنّ أمّي في حالة سيئة.

وقفت مفزوعة:

-لا يا إلهي ليس الآن.

سألتها:

- أتريدين مساعدة؟

- فقط أدعو الله ألّا تلد في هذا المكان وأن تنتظر لنصل إيطاليا.

كانت السيدة الحبلى نائمة على ظهرها على إسفنجة مهترئة وتئنّ وتصرخ من الوجع، اسمها خولة زوجة شقيق سينيت، قامت ماما عائشة وباقي النّسوة بحملها لخيمتنا. وهناك قدّم أيمن ورشاد وإبراهيم ورسلان وطبيب آخر المساعدة الطبّية اللازمة، بقيت طوال ذاك النهار وحتى وقتا طويلا من الليل وهي تصيح من الألم.

لم يستطع أحد فعل شيء حيالها، عند صلاة الفجر وقبل قيام المهربين بتحميل المهاجرين في القارب للانطلاق كان صوت خولة قد خمد، هل نامت؟ نعم، نامت للأبد. لقد فارقت الحياة بسبب مضاعفات المخاض، لم تتمكّن سينيت من دفنها كما يجب، قامت بإهالة الرمال على جسدها بسرعة. بكت سينيت وهي تحتضن ابن أخيها بحرقة في القارب الّذي يقلّنا. هدأت روعتها، وقفت تتمايل مع القارب ثمّ سألت بحزن وعيناها المنتفختان منغرزتان إلى السماء:

-من التالي؟ هل تسمعني، إن كنت تسمعني أعلمني من التالي، أنت يا من في كل مكان وزمان، يا من لا ثقل له ولا خفة أتسمعني، خذني إليك وأرحني من كل هذا العذاب...

سكتت ثم صاحت بوجع:

-لم لم تأخذنا كلنا دفعة واحدة؟ لم تغرز سكينك بلحمنا ببطء؟

حاولت نسوة تهدئتها، حوقلت الجموع بعجز، لكنها تملّصت من بين أيديهن وقد سكبت دموعها بغزارة وهي تراقب ساق خولة خارج التراب والذي لم يدفن جيدًا، تراقب كيف تخلّت عنها وعن أحلامها على الشّاطئ:

-وعدتك يا أخي أني سأحميها هي وطفلها، لقد وعدتها يا أخواتي، ماذا سأقول له، سامحني يا أخي، سامحيني يا خولة، سامحاني يا حبيبيَّ. سيكون الله حنونا عليكما أكثر منّا...

عبرت عيون الجميع لبكائها، وراح الرجال يوارون عيونهم الدّامعة عنها وعن نسوتهم وأطفالهم.

١٩

جالت عيناي القارب، كان يختنق بالمهاجرين، كان مهترئا، أزرق بحري وأصغر من أن يقلّ أكثر من ثلاثمائة مهاجر وهو يشق عباب البحر ببطء. كانت ماما عائشة وباقي زوجات أصدقائنا في القسم الأوسط من القارب مع الأطفال، وهو قسم مغطّى بمظلّة سميكة، فبدت كصندوق معدني كبير آوت إليه النسوة والأطفال. في حين بقي إبراهيم مستلقيا معهنّ بسبب حالته الصحية، أما عن البقية فقد كنّا موزّعين في أماكن متفرّقة، والجميع كان يراقب الطّيف المترامي بين السّماء وخطّ البحر في المدى البعيد وندعو الله في سرّنا أن نصل بسلامة.

بعد مضيّ قرابة الساعة تطلّعت حولي باحثًا عن سينيت وسط الازدحام، وضع مادري يده على كتفي من الخلف:

-هل وجدتها؟

-من تقصد؟

-الجميلة السّمراء.

-لا أعلم عمّا تتحدّث.

-إنّها هناك، عند مؤخّرة القارب، لذا لن تراها من هنا.

اتّجهت إليها بصعوبة بالغة وأنا أدوس على الرّكّاب المتراصين على الأرض، كانت جالسة وقد احتضنت ابن شقيقها النائم، كان يمتلك رأسًا كبيرًا أسود وساقين قصيرتين غير سويّتين.

استأذنتها بالجلوس فنظرت إليّ وقد كانت عيناها المنتفختان من البكاء مثل حبّتي تين ناضجتين، دون أن ترد.

بقيت عيناها منزرعتان في البعيد. مرّ فراغ شفيف على جلوسنا، صوت الأمواج وهرج المهاجرين يعلو المكان، تهادى المركب على الأمواج لكثرة الحمولة، وأخذ الموج يضرب جانبي القارب، تطاير رذاذ الماء على وجوهنا كلّ حين، و طقطقت ألواح في مكان ما أسفل القارب.

سألتها لكسر عزلتها:

-ماذا تفعلين حين تصلين إيطاليا؟

-لا شيء.

-هل ستقدمين اللجوء هناك؟

-لا يهم، أي بلاد ستكون أحنّ علينا من هذه البلاد العربية.

-حين أصل إيطاليا لن أبقى هناك طويلًا سأذهب إلى ألمانيا.

-فيها عدد كبير من السوريين.

-معك حق، الحكومة هناك استقبلت أعدادًا كبيرة من السّوريين الهاربين من الحرب. لكن ليس هذا ما يدفعني لزيارة ألمانيا فقط.

-ماذا إذًا؟

- سأزور بريمن، إنها مدينة قيل لي إنها جميلة.

-كل المدن الأوروبية جميلة.

-إنّ بها تمثال "عازفو بريمن"؟

-ومن هؤلاء؟

-إنّهم حمار وكلب وقطّ وديك، يركبون بعضهم فوق ظهر بعض، هكذا تحكي الأسطورة. أتمنّى أن يسمح لي بزيارة المدينة قبل الحادي والعشرين من مارس القادم.

-ولم؟

-إنّها قصّة طويلة، يحكى في بريمن أنكِ إن أمسكتِ أرجل الحمار الخلفيتين وطلبت أمنية ستتحقّق مهما كانت.

-أتصدق هذا، أين ذهب أيمانك الّذي صدعتني به؟

-إنها أول خرافة أصدقها في حياتي، إنها خرافة من صديقي مصطفى تركته خلفي ولا أعلم إن كان لازال حيًّا... لقد تعاهدت أنا وأصدقائي بأننا إن خرجنا أحياء من المعتقل سنلتقي هناك في الواحد والعشرين من آذار كل عام.

-أين صديقك الآن؟

-لا أعلم، أتمنّى أن أجده في بريمن.

-ماذا لو لم يأتِ؟

-سيأتي، إن كان حيًّا سيأتي، عيناه لا تكذبان. جميعهم سيأتون أنا واثق بذلك.

خلال حديثنا استيقظ ابن شقيقها في حضنها، تلمست بيدها رأسه بحنان، كانت راحة يدها اليسرى على عكس الأخرى خشنة وقاسية مثل قطعة خشب طفت طويلا في المياه:

-ما اسمه؟

-أحمد

-حفظه الله من كلّ سوء.

-أنت شاب جيّد.

قلت مازحًا:

-ليس كثيرًا

ابتسمت، هنا انتهزت الفرصة وسألتها عن قصّتها التي أثارني الفضول لأستمع لها:

-ما قصّتك أنتِ، ممّ تهربين؟

-من نفسي.

٢٠

بعد عدة ساعات هدرت في المكان ضجة كبيرة، تلاها خروج عدة رصاصات من عرض البحر. مدّ الجميع أعناقهم ليروا مصدر النار، من البعيد كان زورق صغير يعلو ويهبط مسرعا نحونا رفع على ساريته الصغيرة علم الأمازيغ، ظنّ الجميع أنهم من حرس الحدود، كان على متن الزورق أربعة أشخاص مسلّحون بالكلاشنكوفات.

حين دنوا من القارب صاح أحدهم عبر مكبّر الصوت على المهرّب أن يخرج لهم، لكن هذا الأخير بدل ذلك اختبأ في غرفة القيادة، فتبيّن أن لديه مشكلة مع هؤلاء القوم. وحين أصرّ على عدم الخروج قاموا بتطويق القارب كما قاموا برمي حبال في محاولة منهم لقلب القارب مع الحمولة الزائدة.

صاح الناس على ظهر القارب بخوف يتوسّلون لهم، ثمّ قاموا بحمل أطفالهم عاليا كي يرأفوا بحال الجميع، من بين الجميع وقف رجل في الخمسين وصاح عليهم:

- إن أردتم المال سندفع لكم، لكن كرمى لله ارأفوا بحال الأطفال والنّساء.

عاد قائد الزورق وهو شاب في العشرين يلفّ شالًا رماديًا على رأسه، رفع صوته عبر مكبر الصوت:

-امنحونا ابن الديوث ولن يصاب أحد بأذى

كان يقصد بابن الديوث المهرّب، فبدا واضحا أنهم يريدون تصفية حساب قديم معه. لكن المهرب بدل ذلك حمل مسدّسه لمنع أحد من الاقتراب منه، ثمّ زعق خائفًا بوجه الجميع:

-إنّهم يكذبون، إن ذهبت إليهم سيغرقون السفينة وسيقتلونني، يريدون أن يدمروا شبكتنا ليتسنّى لهم السيطرة على طريق التهريب. أنتم لا تعرفون هؤلاء القوم.

توتر الناس عاجزين عن فعل شيء، فصوب المهرب مسدّسه على رأس الفتى الذي يقود القارب، وأمره بالانطلاق وعدم التوقّف، قام المسلّحون بمطاردة السفينة، ثم أطلقوا أربع رصاصات في الهواء، وحين لم يجدوا نتيجة قاموا بإطلاق النار بشكل مباشر على مقدّمة السّفينة أصيب خلال ذلك خمسة أشخاص إصاباتهم كانت جميعها في الأطراف، إلا أن أحد المهاجرين أصيب إصابة بليغة في بطنه.

تدافع الجميع للوصول لصندوق القارب للاحتماء من الرصاص، بقينا أنا وسينيت في مكاننا، قمنا بالانبطاح مع من لم يتّسعه الصندوق لأن لا مكان آخر نحتمي به، استيقظ الطّفل أحمد على صراخ النسوة وبكاء الأطفال.

عاد الرجل الخمسيني وصاح من جديد:

-كرمى لله يا أخي ارأف بحالنا، نحن سوريون ولا ناقة لنا في نزاعكم هذا ولا جمل، لقد هربنا من الحرب في بلادنا وجئنا بلادكم لأننا إخوة هاربين من ويل ما عانيناه، كرمى لله يا أخي دعنا نصل الشاطئ، ونعدك أننا...

لم يكمل ذاك الرجل كلماته حتّى انهالت على جسم السّفينة عدة رصاصات، ثمّ توقّفوا وغادروا المكان، صفّق الجميع شاكرين الله لنجاتهم، كما ارتفعت ضحكاتهم وفرحتهم التي عمّت المكان.

بعد مدّة، وقف المهرب فوق صندوق خشبي، وصاح بالجميع:

- ليجلس الجميع، ليجلس الجميع على الأرض، لا أريد لأحد أن يبقى واقفًا، أنتم هناك في المؤخّرة الأمر لا يحتمل بلادتكم، إن الخطر لازال قائمًا، لكن بإذن الله سنصل سالمين، أرجو من الجميع أن يعوا ما أريد قوله، فليتوزّع الجميع إلى قسمين بالتساوي على طرفي القارب الأيمن والأيسر، أنتم هناك أرجوكم اتّجهوا لقسم القارب الأيسر واجلسوا وابقوا ثابتين.

صاح عجوز:

- أخبرنا ما المشكلة؟

-لقد أحدث اطلاق النار فجوة في قسم السفينة السّفلي وهناك تسرُّب للماء إلى داخلها الآن لكنّنا سنعالج الأمر، كل ما نريده هو الهدوء وعدم الحركة، سنقوم بالاتصال بخفر السواحل الإيطالي نريد الهدوء منكم رجاءً.

وبالفعل قام طبيب سوري شاب بالاتصال بخفر السواحل لأكثر من مرة.

أخبرنا المهرب فيما بعد أننا لازلنا في المياه الدولية، وأن خفر السواحل الإيطالي طلبوا منّا الاتّصال بمالطا، ولقد تمّ تزويد الجهات هناك في مالطا بإحداثيات موقعنا وسيصلون إلينا قريبًا.

عند الساعة الثالثة والنصف عصرًا لازالت سفن الإنقاذ لم تصل بعد، أخذت السفينة تترنح يمنة ويسرة، وانخفضت دون المستوى السابق بقرابة خمس سنتيمترات.

ازدحم صندوق القارب بالأطفال والنساء، ازداد ترنّح السّفينة ما كان يعني أن الأمور بدأت تسوء أكثر، طلب قائد السّفينة لتخفيف الحمل بإلقاء الحقائب في البحر، ساعد ذلك في بقاء السفينة في مأمن من الغرق لوقت إضافيٍّ.

أخرجت سينيت من حقيبتها محفظة صغيرة ودسّتها في صدرها، كذلك فعل الجميع، الكلّ يتضرع إلى الله بالفرج. من بعيد صاح عليّ رشاد ومعه الدكتور أيمن لمساعدتهم لإخراج الأطفال من الصندوق لأن القارب سيغرق لا محالة، قال رشاد إن الماء بات يتدفّق إلى الأعلى، إن حدث وغرقت

السفينة ستنقلب ولن يتمكّن أحد من الفرار منها، فطلب مني مساعدته لإخراج الأطفال.

طلبت من سينيت أن تبقى ولا تغادر المكان.

لمحت مشعل مستلقيا على الأرض متمسّكا بدرابزين السفينة يتضرع إلى الله بخوف، ويصرخ بصوت عال:

- (وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فنادى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إله إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وكذلك نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ)

بقيت أنظر إليه مدهوشًا من هول ما يحدث. كان الصندوق مكتظًا، حين رأى ذلك أيمن ورشاد دافعا بكلّ قوّتهما للوصول لعائلاتهما، كان إبراهيم يجلس على الأرض في زاوية كريدور الصندوق، طلب مني رشاد أن أقوم بمساعدته للخروج في حين ذهبا ليخرجا زوجاتهم وأطفالهم.

احتويت ذراع إبراهيم على كتفي وقدته بصعوبة، كان متعبا حدّ الكفاية، كان مادري يقف في وسط الزّحام، صحت عليه :

- مادري... مادري، هنا، أنا هنا ساعدني لنخرج العم إبراهيم.

اقترب نحونا:

- هل أنت أبله سنبقى هنا، هنا أكثر أمانا.

-ستنقلب السفينة.

-ماذا؟

-الماء بات يتسرّب داخل جوف السفينة، إن انقلبت سنعلق في الصندوق

في تلك الأثناء اهتزّت السفينة وتمايلت بعنف، فارتجّ الجميع، وصاحوا بهلع، في البعيد صاح أحدهم:

-لا ستر للنّجاة، لقد تمّ خداعنا لا ستر للنجاة على السفينة.

تغيّر لون مادري لسماع ذلك، في ذلك الحين رآنا رسلان وأولاده، اقتربوا نحونا، كان وجه رسلان متعرّقا ومتعبا، يضمّ بجناحه طفلته كونتيشا ومعه زوجته وطفليه، كانت زوجته تبكي، زعق بوجهها بغضب:

-لا تنوحي وتذعري الأطفال ببكائك،

ثم حوّل عينيه نحونا:

-أين البقية؟

أجبته:

-إنهم بخير عمي رسلان، علينا الخروج الآن من الصندوق.

-اخرجوا أنتم، سآتي مع أيمن ورشاد وسنلتقي عند الجانب الأيمن، إن بقينا مجتمعين سنساعد بعضنا، لأن لا ستر نجاة على متن السفينة هذا ما سمعته قبل قليل.

رَجّت الأمواج السفينة وتمايلت من جديد بقوّة، فسقط الجميع على بعض، ذعر مادري كثيرا، استقام ثمّ بخوف نشل سترة نجاة من يد أحد أولاد رسلان وهرب خارجا، ذهل رسلان من فعله، فصاح خلفه (أيّها الغادر).

أخذت السفينة تتمايل بقوة، تدافع الجميع، حجز بيني وبين رسلان موج كبير من البشر، جررت إبراهيم وخرجت بصعوبة، أجلسته على ميمنة السّفينة وذهبت إلى سينيت.

كانت سينيت تمسك درابزين السّفينة على جانبها الأيمن، حين رأتني أمسكت يدي وسحبتني إليها، سألت بخوف:

- ماذا الآن، هل سنغرق؟

-لا أعلم، لكن ستصل سفن الإنقاذ قريبًا، لقد سمعت طبيبا كان يتحدّث لخفر السّواحل، علينا البقاء أحياء لحينها.

التقطت يدي بخوف:

-أرجوك أن تبقى معي ولا تتركني أنا لا أجيد السّباحة.

نظرت إليها، كانت قد ابتلّت بالماء:

- لا تقلقي سأفعل ما بوسعي أعدك.

تطايرت موجة كبيرة من الماء المتحصل من ارتجاج السّفينة بقوة وتخبّطها يمنة ويسرى، وبسرعة انقلبت على جانبها الأيمن بنسبة تسعين في المائة، أصبح درابزين السّفينة الأيمن تحت أقدامنا، حملت سينيت أحمد والخوف والهلع على وجهها، وبسرعة كبيرة أخذت تغمرنا المياه. اقتربتْ سينيت لتمدّ يدها إليّ، مددت ذراعي لكنّني في ثوان قليلة وجدت نفسي وقد قذفت بفعل ارتداد السّفينة في عمق المياه في حين علقت سينيت وابن اخيها في قلب السّفينة وقد انقلبت على ظهرها، أغلقت فمي وغطست للبحث عنها، كان الجميع يتلبّط تحت المياه حين أخذت تغور في المياه السّحيقة. صعدت من جديد، رحت أحرّك يديّ باحثًا عنها وأنا أصرخ:

- سينيت .. سينيت أين أنتِ؟

يا إلهي، أي كابوس طويل ومرّ هذا؟ الكل يتخبّط في المياه كي ينجو، من لا يعرف السباحة بات يمسك بآخر، أحدهم حمل طفله عاليا وكان وجهه مغمورًا بالمياه، حتّى تلاشى هو وطفله واختفيا في جوف المياه، و آخر كان يصرخ (يا ألله .. يا ألله خذني وأبقِ على أولادي)، وثالث ينشج باكيا (سامحني يا حبيباتي... سامحيني يا زوجتي، يا ربّ ساعدنا يا ألله).

مرّ وقت كاف ليشعر الجميع في البحر باليأس والتّعب، فراحوا يتساقطون واحدا تلو الآخر كالفراش. جمدت ساقاي المتعبتان وبت أتهاوى للأعماق، وفي لحظة يأس قرّرت الانسحاب ببطء من هذا العالم. هذا العالم يختنق بالّضجيج. تحت قشرة الماء المتموّجة كانت أرجل الغرقى لازالت تتدافع لتعيش، الماء المندفع داخل الأفواه يكتم الأنفاس المتبقية عن الحياة، أغمضت عينيّ باستسلام، سامحني يا أبي، سامحوني يا رفاقي لن نلتقي.

صوت والدي يضرب أذني (هل تنسحب الآن؟ كيف سيسمع العالم حكايتنا) سكت صوته ثم عاد من جديد بقوّة وسط لجة الأعماق (اضرب برجلك قشرة الماء الرّخوة و ستجد ساقاك أرضا صلبة).

طفوت على السطح من جديد. صاح الجميع بأمل حين حلّقت في السماء طائرة شراعية فوقنا، لوّحت مع الجميع بيديّ لتنتشلنا من الموت، لكنّها التقطت بعض الصور وغادرت.

على مسافة خمسين مترا كان مشعل قد رمى جثّته الضخمة على باب خشبي للقارب، صحت له بصوت مبحوح لكنه كان مرميًا على بطنه كجثّة هامدة. سبحت نحوه، وحين وصلت كان شبه ميت، لكنه لازال حيًا، ربت على وجهه فاستفاق، لكنّه لم يكن ليقوى على الحركة، أخذ يبكي ويتقيّأ، تعلّقت بطوف نجاته إلى أن سمعت صوت الطائرة من جديد، صاح شاب تعلّق هو وزوجته بطرف دولاب (إنّها مروحية، طيارة، طيارة يا شباب، يا الله، يا الله

أنقذنا)، صاح الجميع بصوت واحد (سبحانك ربي إنا كنا من الظالمين .. سبحانك ربي إنّا كنا من الظالمين)، رددت معهم وكلّي أمل برحمة الله (سبحانك ربي إنّي كنت من الظالمين).

انخفضت المروحية نحونا، ألقت ستر نجاة وعدة قوارب نجاة مطاطية تتسع لخمسة وعشرين شخصًا. لكنها رمتها بعيدًا عني. رأيت على مسافة مئة متر سترة نجاة طافية، اندفعت نحوها لعلّي أتمكّن من اللحاق بالطوف، لكنّني ما إن وصلت حتّى كنت قد صرفت كامل قواي ليتبيّن أنّها جثة لشاب يرتدي سترة نجاة مقلوب على بطنه. سارعت لفكّ سترة نجاته لكنّها كانت عالقة، لكنني تمكنت في النهاية من ارتدائها، حاولت السّباحة نحو الطوف لكنني ما عدت أقوى على ذلك، استلقيت على ظهري على الماء ثم استسلمت بلا إرادة في نوم عميق.

٢١

-أتسمعني الآن، أنت الآن في المشفى والجميع بانتظارك.

قال لي ذلك الطبيب وأنا نصف صاحٍ، ثم وضع يده على عينيّ التعبتين، فتحهما واحدة تلو الأخرى، ثم راقب جهاز النابض ووضع سمّاعته على صدري، خلعها ثم قال بصوت تقصّد إخفاضه (إنك بخير، حرّك أحد أصابع يدك اليمنى). حرّكت إصبعي. (أدر رأسك لليمين)، أدرت رأسي إلى اليمين بصعوبة.

كان المشفى يغصّ بالحركة. كان مادري يجلس على كرسيّ في الركن اليميني من المكان يشرب كأس شاي ساخن ويلفّ نفسه ببطانية. لاحظ الطّبيب أنّي كنت أنظر لمادري فسألني إن كان من معارفي فلأحرّك أحد أصابع يدي اليمنى وإن كنت لا أعرفه فلأحرك أحد أصابع يدي اليسرى. بالفعل حرّكت أصبع يدي اليمين، فوقف الطبيب واتجه لمادري وحين عاد كان مادري يقف فوق رأسي، سأله الطبيب:

-هل تعرفه؟ أهو أحد أصدقائك؟

نظر مادري نحوي نظرة منكسرة، ثم قال للطبيب:

-لا سيّدي، لقد رأيته على المركب لكنني لا أعرفه.

ثم استدار وغادرني، ولم نلتق منذ ذلك الحين.

انتقل الطبيب إلى سرير آخر قربي لمتابعة حال أحد الناجين، اقترب منه شاب يضع كاميرا في عنقه، بدا متحمّسًا وغاضبًا:

- أنا صحفي من الأسبيرسو، وأودّ أخذ الشّهادات لبعض الناجين. لكن في البداية مشاهداتك الأولى مهمّة لنا في التقرير سيدي، إن كان هذا ممكنًا؟

أجاب الطبيب:

- أهلًا بك، ليس باستطاعتي تقديم المساعدة الآن، بالإمكان إجراء لقاء مع بعض الناجين في الخارج، هنا جميع الناجين لازالت حالتهم غير مستقرّة حتى الآن.

- أتفهّم هذا، لكن أريد ملاحظاتك عن الحادث، بالتأكيد أنك تحدّثت معهم، هل قالوا شيئًا تجده مهمًا من الممكن أن نسلّط الضوء عليه؟

انشغل الطبيب في قياس ضغط المريض:

-مهمّتي هي متابعتهم لتتحسن حالتهم ومهمّتك نقل ما جرى وجواب ذلك تجده منهم ليس منّي.

ردّ الشاب بحماسة:

- نتفهم ذلك، لكن ما جرى سيدي هو جريمة بحق الإنسانية. حتّى الآن غرق أكثر من مئة طفل وقرابة مئتي شاب وامرأة ولازالت فرق الإنقاذ تبحث عن ناجين، هل تعلم سيدي الطبيب أن السفينة الإيطالية ليبرا كانت على بعد أميال، أي على بعد ساعة واحدة من المركب المنكوب لكنها لم تساهم في عملية الإنقاذ رغم قيام طبيب سوري على ظهر المركب بتوجيه نداء استغاثة للسفينة في روما استمرّ لساعات. أتعلم بماذا ردّ المجيب على النداء؟! لقد قام برمي مسؤولية الإنقاذ على الحكومة المالطية، علمًا أن ليبرا هي الأقرب جغرافيًا إلى القارب. إنهم يتذرّعون بذلك الآن بقولهم إنهم تصرّفوا هكذا احترامًا للاتفاقيات الدولية.

تنهّد الشاب، ثم أكمل كمحقق لا كصحافي:

-بناءً على اعتبارات بروتوكولية سخيفة خسر المئات من السوريين أرواحهم، آباء شاهدوا أطفالهم يغرقون أمام أعينهم دون أن يستطيعوا فعل شيء لهم، كل ذنبهم أنهم شبان هربوا من سوريا لإيجاد ملاذ آمن لهم وعائلاتهم في أوروبا، في بلادنا. هل تعلم حين اتصل الطبيب السوري بليبرا وأخبرتهم أنها ستساعدهم ماذا صاح الضحايا على سطح المركب، لقد قالوا بصوت واحد (شكرا أيها الشعب الإيطالي)، لقد خذلهم الشعب الإيطالي يا سيّدي، لقد خذلنا إيمانهم بإنسانيتنا التي نتشدّق بها كل يوم أمام وسائل الإعلام، أعدك أنّنا لن نسكت، سندين الجميع وفي مقدّمتهم الحسناء كاتيا بيليجرينو، ما يسمونها أيقونة البحرية الإيطالية.

التفت إليه الطبيب باستغراب دون أن يردّ بكلمة، وفي اعتذار شديد قال الصحافي:

-لربما انفعلت قليلًا، كلانا في النهاية من أصول عربية، ونحن أيضًا لاجئان في هذا البلد لكننا مواطنين وعلينا الدّفاع عن قيم هذا البلد، لهذا السبب أنا هنا لأني أعلم أنك ستتفهم ما أقوله. مسؤوليتنا الآن مزدوجة، أعتذر مجددًا إن تحدّثت بهذه الطريقة. يرافقني أيضًا فابريزيو غاتي إنه صحافي مهم في الصحيفة، إنه هناك يتحدّث مع بعض الناجين، وأعدك أننا سنفضح المتورطين.

انتهى الطبيب من معاينة المريض ثم ابتعد إلى مريض آخر، بقيت أنظر إليهما حتى اختفيا بين الجموع.

بالفعل بعد شهر أدانت صحيفة الأسبيرسو في تقريرها عن الحادث الشابة كاتيا بيليجرينو قائدة سفينة "ليبرا" في التقصير والفضيحة التي وقعت، وطالبت الصحيفة بمحاسبة كلّ من ساهم في تأخير وصول النجدة وكان سببًا في غرق 268 شخصا بينهم 160 طفلًا فقدوا حياتهم في البحر.

ماما عائشة، العم رشاد وعائلته بأكملها، العم رسلان وجميع أولاده، وهافال وسينيت وابن شقيقها أحمد، جميعهم لازالوا هناك غرقى ولم يعثر عليهم أبد في ذاك اليوم العصيب، في حين نجا العمّ أيمن والعم إبراهيم ومادري ومشعل ممن عرفتهم على متن القارب.

٢٢

بريمن – ألمانيا

مارس 2014

استأجرت غرفة في أحد فنادق بريمن مذ وصلت إليها، وهو مكان إقامتي المؤقت في هذه المدينة، إنها مدينة جميلة حقًا يا أخي، تسكعت في شوارعها بلا ملل، شربت القهوة في أحد مقاهي حي شنور التاريخي وتناولت الأيس كريم في سوق بريمر والتقطت صور السيلفي قرب تمثال رولاند.

كل تلك المناظر الجميلة لم تكن لتروي روحي العطشة بقدر شوقي الراعف للقيا الأصدقاء غدًا حيث يصادف الواحد والعشرون من مارس. أتمنّى أن ألتقي بهم جميعًا.

في صباح اليوم التالي توجّهت لنصب عازفوا بريمن، تخيّلتهم ثلاثتهم، عمران، مصطفى وحازم، يختبؤون خلف التّمثال، أو يقفون أمامه يركبون على ظهور بعضهم البعض كما يفعل الحمار والكلب والقط والدّيك في التمثال، يضحكون، يركضون نحوي، أضمّهم وأشتمّ رائحتهم بعطش.

لكنّني كنت وحيدًا.

عند الظهيرة بدأت أفقد الأمل من قدوم أحد، وأخذت الوساوس تجد طريقها إلى رأسي، أمسكت رجلي الحمار على التمثال وأغمضت عينيّ، تمنّيت، نعم تمنّيت أمنية واحدة فقط هي أن أراهم ولو لمرّة واحدة.

حين انتهيت أفلت يديّ، فتحت عينيّ فانزرع أمامي شاب بملامح عربيّة ويربط شعره للوراء، قال لي بابتسامة صغيرة (يبدو أني وصلت في الوقت المناسب)، لا لم يكن أحدا من أصدقائي، نه لاجئ سوري يدعى عبود الشامي، وقد قدم من كامب ليباخ للاجئين خصيصًا.

جلسنا على مقعد خشبي قرب النّصب، سألني باهتمام:

-أتعرف شابا سوريا من الجنوب يدعى حازم خير الله؟

رددت بفرحة:

-بالتّأكيد أعرفه، أين هو، لم لم يأتي للموعد؟ أيضًا هناك شابان آخران عمران ومصطفى هل هما معه؟

استدار عبود نحوي ثم قال بحزم:

-هناك شخص واحد الآن بحاجة لمساعدتك وهذا جلّ ما أعرفه الآن إنّه حازم وهو في وضع سيّئ في حين لا تسألني عن البقية. إنه الآن في كامب ليباخ

للاجئين ارتدي سترتك إن كنت ترغب في رؤية صديقك ومساعدته فالطريق طويل.

٢٣

كامب ليباخ للّاجئين – ألمانيا

خلال خمس ساعات و 4 دقيقة هي طول المسافة من بريمن إلى ليباخ حدثني عبود كيف تعرّف على حازم الذي روى له كل ما وقع له مذ قام بوداعي مع عمران وغادرا عش الترك الشرقية.

يقيم حازم منذ وصل إلى ألمانيا قبل ستة أشهر في كامب ليباخ للاجئين. وحين وصلت الكامب عند قيظ الظهيرة، صعدت مع عبود إلى غرفته، راقبته دون أن يراني من فتحة صغيرة في الباب وقد رقد في غرفته يتلمس مكان جرحه المندمل، تهدّلت وجنتاه وتكشفت نواجذه بوجع خفيف حين ضغط على مكان رصاصة قديمة استقرّت تحت صدره. استراح عنقه بغربة فوق راحة يده، ثمّ حمل بالأخرى مرآته وأخذ يشاهد وجهه العابس المحتد في المرآة، كما قيل لي أنه كان يفعل كلّ يوم، وكمن يرغب في نسيان هذا الوجه البائس الّذي مخضته الحرب رمى ما في يده على الأرض واستقام بتثاقل يجرجر نفسه ليراقب الفضاء الوسيع من نافذة غرفة الكامب، في فناء الكامب تحلّق مجموعة من اللاجئين في نصف دائرة مفتوحة على شاب يجلس على كرسي مرتفع ويعزف على كمنجته الضخمة من سلالة

كونترا باص. فسرعان ما خطفته الذاكرة لوديان الجنوب، بدى أنّه يتذكّر الحصار المرّ، فحالته كما أخبرني عبود باتت تسوء في الأيام الأخيرة، وأن كلّ شيء في الأشهر الأخيرة بات يذكِّره بما جرى له. يركض هو وعمران وأحد عشر شابًا حاولوا الفرار من كمين أعدّه مقاتلون للفصيل الإسلامي في عش الترك الشرقية. علا في أذنيه ومن حوله صوت المتمرّدين وهم يهدرون رصاصاتهم بحرفية عالية وعلى مقتل، يصرخون بصوت واحد "الله اكبر"، "اقتلوا المرتدّين"، في حين يدعو هو الله راكضا يلهج ليحمي روحه، يتساقط رفاقه واحدا تلو الآخر من حوله. انزلق في الضباب تحت صخرة نافرة، دفن نفسه بالتراب بسرعة، همد ساكنًا يكظم أنفاسه الحارة كي لا تفضح مكانه، رقد يراقب من قبره رفاقه الأحياء يساقون لمصيرهم المحتوم، كانوا جرحى، مدمين، صغار وخائفون، يستحلفونهم بأسماء الأنبياء وأسماء الله المقدسة ألا يقتلوهم، لكنّهم بدل ذلك ربطوا أيديهم وأجبروهم على خلع سراويلهم ثم سيقوا حفاة عراة إلى حافّة الطبقة من الوادي، وحين بدّدت أشعة الشمس الناهضة خيوط الضباب تكشّفت قاماتهم جثاة على ركبهم، صرخ بهم أحد المسلحين وهو يضربهم بعقب بندقيته (مسافة متر... اجعلوا مسافة متر بين كل كافر وآخر)، سقطت عينا حازم على عيني عمران الخائفتين الذي وقع تحت الأسر، وبلا أي سؤال أو محاكمة اقترب خلف عمران مقاتل ملتحٍ طويل وضخم ويحمل سكينًا طويلة، ومع كل خطوة يخطوها ذاك الملتحي صوب عمران كانت طرقات قلب حازم تتفلّع، حطّ ذاك الغريب يده على قصة رأس عمران وسحبه بحقد للوراء فباتت عنقه حرّة للسكين، ثم

وببطء شديد جررها على عنقه، كما يجرر ذاك الشاب اللاجئ الآن قوسه على وتر كمنجته. راح عمران يتلبط مغدورًا لا يعرف ذنبه. ذُبحوا جميعا كالنعاج أمام عينيه، بل من النعاج ما يشفق لحاله بأن لا تذبح أمام رفيقاتها بسكين باذخ.

نشج حازم باكيًا بصمت في مخبئه حتى أوحلت دموعه التراب الذي غطّا خديه. بعد ساعات كان الجميع قد تفرّق، باستثناء الجثث التي تركت لتنهشها الطيور والذئاب، فخرج حازم من قبره مرعوبًا من هول ما حدث.

حين دخل حازم المخيّم بدا وحيدًا، مهيض الجناح، متعبا وغضّا، وقد نما الشعر على شاربيه بعشوائية، وما كان يميّزه عن باقي المهاجرين الآخرين القادمين من سوريا ليس كونه شابا بسيطا أسمر قمحي أشعث، ولا آثار الحروب التي تركتها في وجهه وجسده ولا حتى لهجته الجنوبية العميقة. بل ما ميّزه عن الناجين في هذا المكان أنه لاجئ يقف على مسافة متر من الجميع ولا يتحدّث مع أحد.

من النافذة بات كل يوم يراقب الذرى البعيدة وهاتيك الجبال، فخيّل له كما كل يوم وجه ملتحٍ ضخم وساخر يمدّ لسانه من بين أشجار السّرو المكتظة التي تغطي فناء الكامب. تراجع عن النافذة جافلًا، سقط وجهه على المرآة، عاد ذاك الوجه السّاخر يمدّ لسانه في المرآة من جديد يقول له (مسافة متر... مسافة متر)، زحف على مؤخّرته هاربًا للوراء، تمايل واقفًا

وقد أسند يده للنافذة وهو ينقّل عينيه بين الوجهين اللّذين رسمهما خياله في الفناء وفي المرآة، في تلك الأثناء فتحتُ الباب لأحتضنه وأشتم رائحة عمران في قميصه، ما إن اقتربت منه حتّى ذُعر منّي، حاول عبّود تهدأته، نظر إلي وقد رفع حاجبيه ففهمت ما أراد وتراجعت للوراء، اقترب منه عبود وقال له بروية:

-فلتهدأ، كل شيء على ما يرام، هل أستطيع الاقتراب... خطوة أخرى عادي؟ أعرف أنك لا تحبذ أن يقترب منك شخص لمسافة أكثر من متر، جئت أخبرك أني جلبت لك صديقك، انظر إليه، ألا تريد معانقته؟ ألا يذكرك بشيء؟

هممت بالاقتراب منه، لكنه ذُعر من جديد، فأومأ لي عبّود بالتّراجع، أكمل عبود:

-لا عليك، ها أخبرني كيف حالك اليوم؟ تبدو في صحّة جيدة، هل تود اللعب معنا كرة الطائرة؟ ينقصنا لاعب جيّد مثلك... اسمعني يا أخي إن لم تساعد نفسك لن يساعدك أحد، صدّقني نريد مصلحتك، ضع يدك في يدينا لترى النور، وجودنا هنا في هذه المدينة يعني ولادة جديدة يا أخي. انس ماضيك، دعنا ننسى تلك الأيام المرّة يا أخي، أنا لا أريد تكرارها، ولا تذكّر أي شيء قبل وصولي إلى هنا. كلّ الشرقيين في هذه القارّة عانوا كفاية. انظر إلى كل هؤلاء (وقد أشار برأسه إلى شبان لاجئين يتجوّلون في فناء الكامب)،

جميعهم نجوا بأعجوبة، جميعهم عانوا ما عانيته، جميعهم كانوا بائسين يا أخي، لكنّهم تعايشوا مع ذلك.

أترى أولئك الشبان هناك عند مدخل الكافيه، على اليمين ذاك الشاب الأسمر القصير اسمه عنتر، إنه من اليمن من مدينة عدن، قتل المتمردون ابنتيه، فقد أطلقوا قذيفة على منزله وهم نيام لأنهم حاولوا اغتيال أخيه كونه عضوا في البرلمان، لقد طار رأس إحدى ابنتيه وسقط في حضن زوجته فساحت المسكينة مجنونة في الشوارع، يا لألمها. أما ذاك الهزيل الناحل من يتحدّث في هاتفه ويضحك اسمه أدهم، لقد كان محاصرًا في مخيّم اليرموك بدمشق، أمضى عامًا كاملًا يأكل الأعشاب والجرذان والقطط، دفن جميع أفراد عائلته بكلتا يديه أثناء الحصار، لقد ماتوا جوعًا ومرضًا، حين وصل إلى هنا كان لديه من الضيق ما يدفعه لينتحر لكنه لم يفعل شيئا، استمرّ في التنفس، وها هو الآن يرغب في الزواج ليشكّل عائلة من جديد. كلّ واحد من هؤلاء له قصة وحكاية، الحياة ستستمرّ من دوننا يا أخي، إنها حياة بائسة وحقيرة نعم لكنّنا سنقاوم، سنخبر العالم أننا نستطيع أن نعيش ونحيا بالطريقة التي نريدها، لهذا أعطني يدك لنكمل حياتنا، ولنخبر الجميع أنه بإمكاننا أن نحدث فرقًا، أمامنا طريق طويل يا هذا... هيا سنذهب أنا وصديقك للعب الكرة، أنا بانتظارك ، متأكّد أنك ستتبعنا.

غادر عبود المكان وطلب مني فعل الأمر عينه، وكله أمل أن ينجح هذه المرة في إقناعه بكسر عزلته لكن الأمر يحتاج للوقت. أما أنا لم أقو على قول شيء لحازم، أغلقت الصّدمة مخارج حروفي وكلماتي وبقيت صامتًا. كذلك حازم لم يتلفّظ بأي حرف خلفنا، لكنه عاود النظر خلال النافذة، وقف وعيناه منزرعتان على النافذة يفكّر في اللّاشيء.

في الطابق الأرضي أمشي بتثاقل فاتر الحيل وببطء شديد، خطوة، خطوتان، ثلاثة، أربعة، من النافذة هوى حازم أمامي بجثّته، على مسافة متر تضرّج وجهه بالدّماء على إسفلت الأرضية.

توقّف كل شيء عن الضجيج، ضربات قلبي في أذنيّ، لا أسمع غيرهن، أرى الجميع يركض نحوه ببطء شديد، التفّوا جميعا على مسافة متر حول بقعة الدم التي باتت تتسع على الأرض فوصلت إلى قدميّ حارات كمويجات شاطئ رابيت هذا.

الفصل الأخير

عُزير يُبعث مرة أخرى.

تمّت